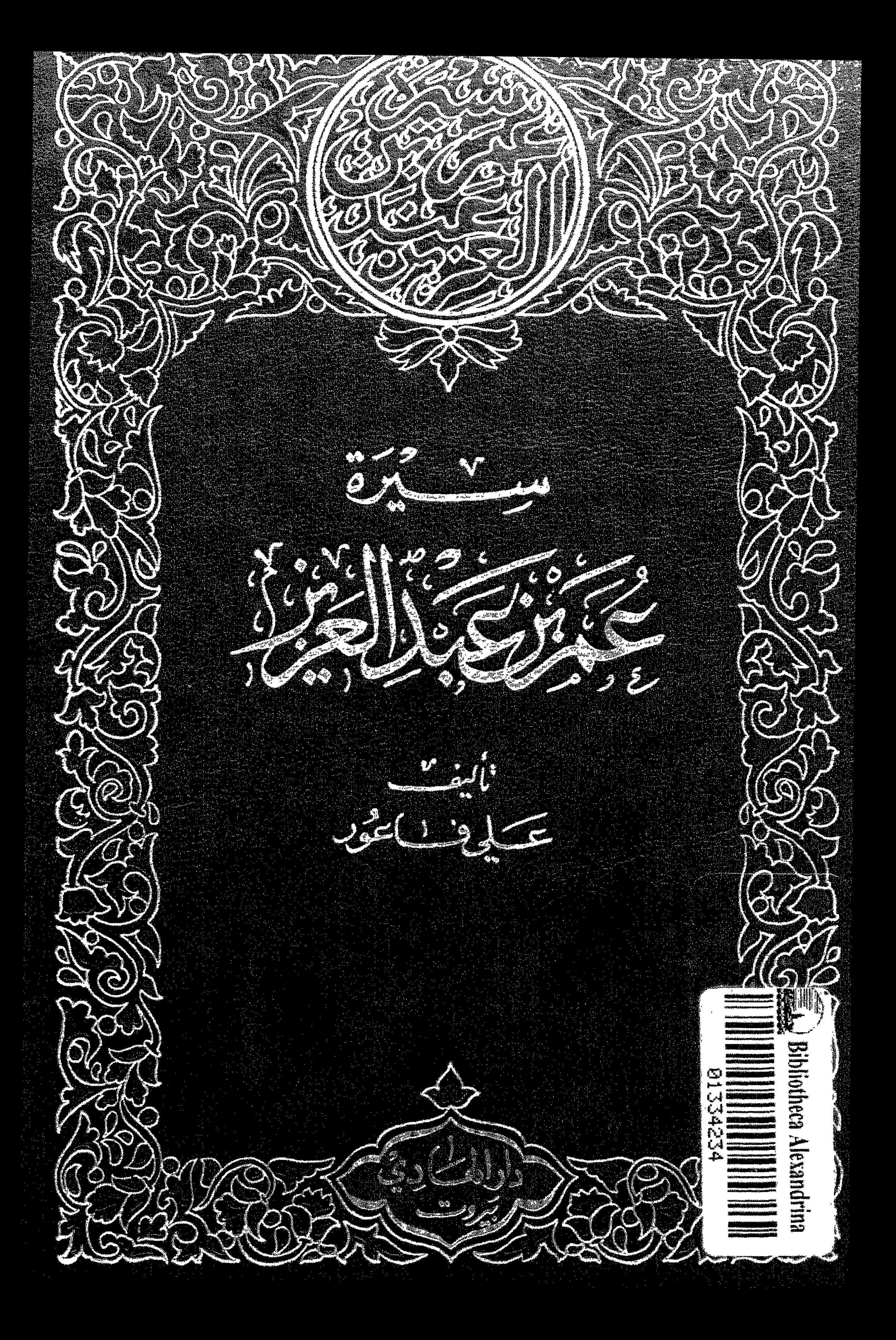
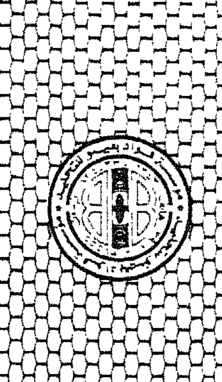
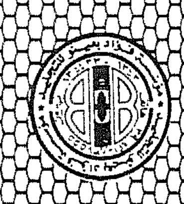

سيرة
عمر بن عبد العزيز
تأليف
علي فاعور







سيرة
عمر بن عبد العزيز



سيرة عمر بن عبد العزيز

تأليف
علي فاعور

دار الهادي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: MCS٢٠٧٧٧-٢٢٥٩٧ بلاغ -
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.

إهداء

إلى روح المرحوم والدي الذي ملأ قلبي بحب الصفوة الأخيار ، وشغل وجداني بِسِيَرِ الأتقياء الأبرار



بسم الله الرحمٰن الرحيم

شغفت بسيرة عمر بن عبد العزيز ، تلك السيرة العطرة التي حملت في ثناياها حياة زهد خالصة كلها تبتّل وعبادة ، وعزوف عن الاستمتاع بالحياة الدنيا وملذاتها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدي الذي لا يزول .

فأحاديث المؤمنين الأتقياء وأخبارهم لها نكهة خاصة تشعرك بدفء الإيمان وبرد اليقين ، فتتعشقها القلوب الهائمة ، وتطمئن إلى واحاتها النفوس الحائرة . . .

لا أقول هذا من باب المغالاة ، ولا لأغريك إلى قراءة هذا الكتاب ، إنما أقوله من باب الموضوعية التي اتسمت بالدقة والأمانة في نقل الخبر ، والتي لا أشكُّ أنها اصطبغت بصبغة العاطفة اتجاه عمر ، رغم المحاولات الدائبة في إبعاد هذا الشعور الذي بدا مسيطراً عليّ وأنا أجدُّ في تسقّط أخبار الرجل ، وأجمع ما تناثر منها في صفحات الكتب .

من هنا لا أجدُ مفارقة إذا قلتُ إني أحببت عمر في جميع مراحل حياته : أحببته في طفولته كما أحببته في إمارته ، وازددت شغفاً به وحباً إبّان خلافته . ولو سُئلت عن السبب ! لما أسعفتني الذاكرة على الإجابة . . . ولكنّي أبادر إلى القول إن سنتين ونصف من عُمْر خلافته جعلتني أُسدلُ الستار على أربعة

عقود ونيّـف من سني حياته .

فعمـر بن عبد العـزيز واحـد من أولئك القلّة الـذين دأبوا على مجـاهدة النفس ، وتصفيـة القلب ، وتنقيـة الـروح من أدران الشهـوة والهـوى ، وقـطع العلائق المادية التي تفسد على المرء صلته بربه وبالناس .

وعمر بن عبد العزيز ليس كغيره من الزهاد ، فقد أُوتي من الثروة والجاه ما لـم يتوفّر للكثير منهم ؛ فقد وهب له بنو أمية هبات كثيرة ، وضياعاً منتشرة غنية ، بالإضافة إلى ما ورثـه من أبيه وأهـل بيته . . . ورغم ذلـك فقد اطمأنت إلى الإيمان نفسه ، وارتضى شرائع الدين هدياً ونبراساً .

ولئن أُطلق عليه اسم « خامس الخلفاء الراشـدين » فهو جـدير بـذلك ، رغم اختلاف الظروف والأحوال التي أحاطت به . فقد كانت طريق الـراشدين مُمهّدة بالرسالة النبويّة المباركة ، والتي لم تكن قد خبت جذوتها بعد ؛ أما عمر فقد شقّ طريقه رغم صعوبة المسلك ووعثاء السبيـل . . . ذلك أن بني أميـة تركوا لأنفسهم الأعنة ، فمالت الأفئـدة إلى الشهوات ، وأعـرضت الألسنة عن ذكر الله . . . فراح يجاهد الناس في أموالهم وأرزاقهم : يا بني ، إن قومـك شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء . والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهرق في سببي محجمة من دم ! . . .

اختطّ عمر طريقه متجاوزاً كل الحواجز والمعوقـات ، فأخـذ من أهله ما بأيديهم وسمّى ذلك مظالم ، فسلمت الرعية من الظلم والأذى ، لكنّ عمر لم يسلم من كيدهم فمات مسموماً ، وهو يردّد : « اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران ، لك في أحدهما رضا ، ولي في الآخر هـوى ، إلا آثرت رضـاك على هواي ، فاغفر لي !

ونحن بدورنا نقول :

رحـــم الله مـــســـلمـــاً ذكـــر الله فـــازدجـــر

وبالعودة إلى الكتاب فقد جعلته في أربعة عشر فصلاً ، تحدثت فيها عن نشأة عمر ، وأمارته ، وخلافته ، والوفود التي قدمت من أقاصي البلاد لتهنئته ، ووفاته ، وعدله ، وزهده ، وأدبه وعفوه ووصاياه .

ثم عمدت إلى خطبه فأثبتها ، وتناولت ما نسب إليه من شعر وما دار حوله ، وما تردّد له من غناء ، وما كتبه من الرسائل ، وما جرى على لسانه من أقوال وأفعال وموقفه من العلوم وتشجيعه للعلماء .

وألقيت في الفصل الأخير بعض الأضواء على سيرة ولده عبد الملك لما لها من وثيق صلة بحياة والده .

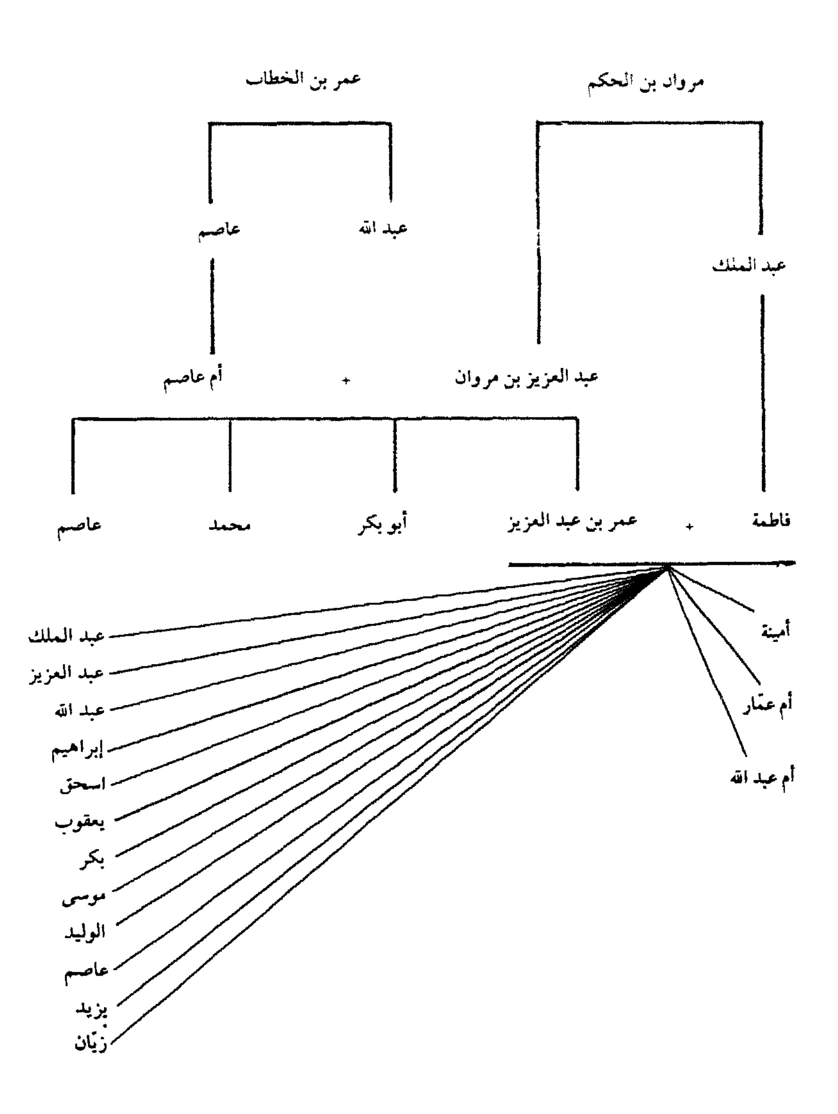
وأخيراً لا بدّ لي من كلمة أنهي بها رحلتي مع أحد أعلام الإيمان ، عنيت به عمر بن عبد العزيز ، وهي أن كتاب « على خُطى الراشدين » جاء ثمرة جهد مضنٍ ، وعمل دؤوب ، أفرغت خلاله كل جهد وطاقة ، وهمي أن أوفّر على القارىء الكثير من عناء البحث والتنقيب .

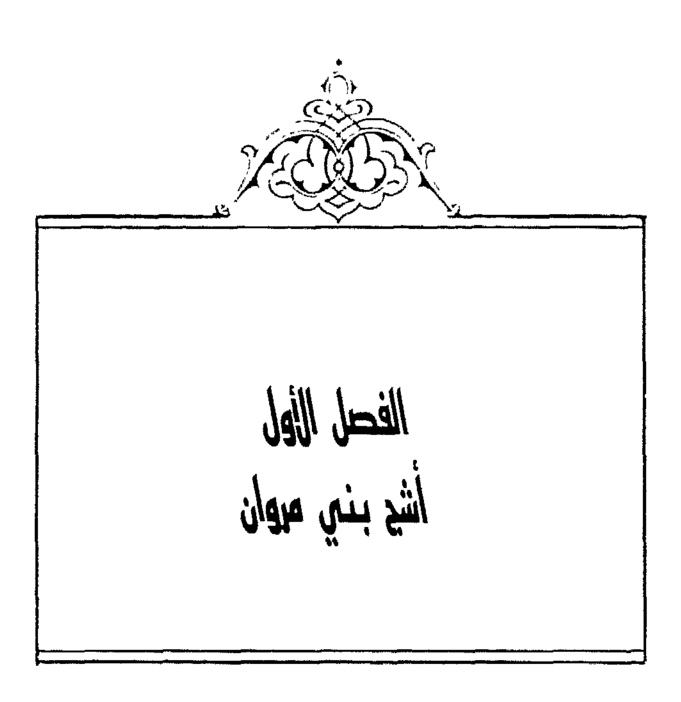
فحسبي أن أكون وُفّقت إلى ما قصدت ، وأدّيت خدمة في ما بذلت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكّلت وبه استعين .

علي حسن فاعور

في ١٩ رجب ١٤١٠هـ

الموافق فيه ١٦ شباط ١٩٩٠ م


مروان بن الحكم
عمر بن الخطاب
عبد الملك
عبد الله
عاصم
عبد العزيز بن مروان
+
أم عاصم
فاطمة
+
عمر بن عبد العزيز
أبو بكر
محمد
عاصم
أمينة
أم عمّار
أم عبد الله
عبد الملك
عبد العزيز
عبد الله
إبراهيم
اسحق
يعقوب
بكر
موسى
الوليد
عاصم
يزيد
زبّان



الفصل الأول
أشج بني مروان

* الله أكبر ! هذا أشجّ بني مروان الذي يملك !

(الأصبغ)

* إنه أشجّ بني مروان ، وإنه لسعيد !

(عبد العزيز)

* ليت شعري ! من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلاً !

(عبد الله بن عمر بن الخطاب)



ولد عمر بن عبد العزيز بحلوان ، وهي قرية من أعمال مصر مشرفة على النيل ، وكان أول من اختطها والده عبد العزيز ، وضرب بها الدنانير ، وكان له كل يوم ألف جَفنة للناس حول داره ، وبذلك يقول الشاعر :

كُلُّ يومٍ كأنه عيد أضحى ... عند عبد العزيز ، أو يوم فطرِ
وله ألفُ جفنةٍ مترعاتٍ ... كلَّ يومٍ ، يمدُّها ألفُ قدرِ[١]

وكان قد وقع بمصر طاعون ، فخرج عبد العزيز هارباً منها ، فلما وصل حلوان استحسن موضعها فبنى الدور والقصور واستوطنها وزرع البساتين وغرس كروم النخيل حتى غدت حلوان واحة تتفيّأ كروم النخيل والعنب والتين . وفي ذلك يقول عبد الله بن قيس الرُّقيّات[٢] :

---

(١) الجفنة : القصعة الكبيرة . المترعات : الممتلئة .

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات : شاعر من قريش ، نشأ في المدينة زمن معاوية ثم انتقل إلى مكة حيث خالط المغنين والمغنيات . خرج مع مصعب بن الزبير إلى قتال عبد الملك ، وظلّ في صحبته حتى قُتل مصعب ، مما أغضب الأمويين فراحوا يطلبونه فأجاره عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب . التحق في أواخر حياته بعبد العزيز بن مروان ولزمه حتى مات سنة ٧٥هـ .

سقياً لحلوان ذي الكروم وما صنّف من تينه ومن عنبه
نخلٌ مواقيرُ بالفناءِ من الـ برنيِّ ، يهتز ثم في سربه[٣]
أسودُ ، سُكانه الحمام ، فما تنفكُّ غِربانه على رطبه[٤]

كانت ولادة عمر سنة إحدى وستين ، وقيل : سنة ثلاث وستين . . . ومهما يكن من أمر ، فقد درج الطفل في دلال وترف ، تحفّ به مظاهر النعيم من قصور ورياش . . . لكنه لم يؤخذ بهذه المظاهر ، شأن غيره من أبناء الملوك ، فقد تعهّده أبواه بالتربية فورث منهما جوهر التقوى وحب المروءة ، مع ما أُثر عنه من حيوية وحماسة . . .

وشاءت الظروف أن يتلقى عمر علومه الأولى في المدينة ، بعيداً عن الأهل ، على يد صالح بن كيسان فتلقى رعاية خاصة من أخواله آل الخطاب ، وأجرى عليه عمه عبد الملك من مال الفيء في كل شهر ألف دينار .

شبّ الفتى أبيض جميلاً حسن اللون دقيق الوجه ممتليء الجسم ريّان ، لا يصرف الرائي عنه بصره إذا رآه[٥] ، فإذا ادّهن بالطيب عصفت في طريقه رائحة طيبة فتُشمّ من بعد ، وإذا طبع بخاتمه طينة الكتاب اتّسخت الطينة من العنبر[٦] . وطالما انتظر الناس ثيابه بعد الغسال حتى يغسلوا ثيابهم في إثرها لما تترك في الماء من عنبر وطيب[٧] .

وكان يؤخذ على الفتى مبالغته في التنعم ، فكان الذين يعيبونه من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط في التنعم والإختيال في المشية[٨] ؛ وقد أعجبت تلك

---

(٣) المواقير : التي كثر حملها . البرني : ضرب من التمر .
(٤) معجم البلدان ٢ : ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٥) ابن عبد الحكم ص٥٣ .
(٦) ابن عبد الحكم ص٢٢ .
(٧) الأغاني ٨ : ١٥٠ وصفة الصفوة ٢ : ٦٧ .
(٨) تاريخ الخلفاء ص٢٢٩ .

المشية جواري المدينة ، فرحن يقلدنها ويسرن على خطتها حتى يرشقن وتجمل رشاقتهن في العيون(٩) .

وأرخى عمر شعره ، وارتدى أغلى الأزر ، ولبس أثمن الأردية ، وكان لا يعجبه ثوب حتى كاد يجعل ماله كله في زينة الأثواب ، وهو الذي يقول : لقد خفت أن يعجز رزقي عن كسوتي ! وما لبست ثوباً قط فرآه الناس عليّ إلا يخيّل لي أنه قد بلي(١٠) .

وبدت على الفتى مظاهر التكبر ، فإذا سار لم يسر إلا في جماعة من غلمانه وعبدانه ، وإذا دخل طرف إزاره الثمين في نعله جذب الإزار فشقّه ولا ينحني على نعله فيخلعها لينطلق الإزار ، وإذا سقط أحد شقي ردائه عن منكبه تكبّر أن يرفعه ، وإذا انقطعت نعله لم يعرج عليها ، فإذا لحقه أحد بها من خدمه عنّفه وردّها(١١) . وظلّ عمر هكذا يزيد مظاهره غلواً وتمادياً حتى رماه بالكبر كثير من الناس(١٢) .

لئن نسي الفتى نفسه وتاه في زحمة الغلو والتكبر إلى حين فإن والده عبد العزيز لم يدع تلك الاسترخاءة تطمئن وتتجذرفي نفس ابنه ، بل كثيراً ما أجرى عليه العقوبة ، وأخذه بنوع من التربية الصارمة . . .

ويحدث أن يتأخر عمر يوماً عن صلاته ، فينتظره مؤدبه صالح بن كيسان بباب المسجد ، فلما أقبل سأله صالح عن سبب إبطائه ، فتلعثم الفتى وارتبك قائلاً : كانت مرجّلتي تسكّن شعري ؛ فقال صالح : هل بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة ؟ وكتب بذلك إلى أبيه في مصر ، فأرسل

---

(٩) ابن عبد الحكم ص٢١ .
(١٠) ابن الجوزي ص١٤٦ .
(١١) ابن الجوزي ص١٥٠ .
(١٢) ابن الجوزي ص١٧٤ .
(١٣) ابن الجوزي ص٩ .

عبد العزيز رسولاً إلى المدينة لم يكلمه حتى حلق شعره[١٣] .

أما التربية الصارمة فلئن بدت بعض خيوطها في هذه الحادثة فإنما تظهر جليّة واضحة في ما كتبه عبد العزيز إلى مؤدب ولده حيث يقول :

أما بعد فإني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي فصرفتهم إليك عن غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي ، فحدّثهم بالجفاء ، فهوأمعن لإقدامهم ، واترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلّل الضحك فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن . فإنه بلغني من الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماءُ . وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته ، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض حافياً فرمى سبعة أرشاق ثم انصرف إلى القائلة .

ترسّخت هذه التربية في نفس عمر ، ووجدت صداها في فسحة من الزمن ، لاسيما حين وُلي أمور المسلمين فكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، ولا يجانب الباطل ولو لردحٍ من الزمن .

وقد تجلّت تلك الصفات الإيمانية في كثير من المواقف كان عمر خلالها يثبت المزيد من الشهامة والترفع . فلما عزم الوليد على خلع أخيه سليمان من العهد أطاعه كثير من الأشراف كرهاً ، لكن عمر بن عبد العزيز قال : لسليمان في أعناقنا بيعة ، فطين عليه الوليد[١٤] ، ثم شُفع فيه بعد ثلاثة ، فأدركوه وقد مالت عنقه[١٥] .

---

(١٤) طين عليه : أدخله في حجرة ، وسدّ جميع نوافذها بالطين ، يريد أن يميته جوعاً واختناقاً .

(١٥) تاريخ الخلفاء ص٢٣٠ .

لكن ميراث الحدّة الطاغية الذي ورثه عن أمه كثيراً ما دفعه إلى الزلل فخافه عبيده وأولوه طاعة عمياء . وحين اجترأ عليه أحدهم أمسك عمر بتلابيبه وطرحه ، وجعل يضربه ضرباً مبرحاً ، ورأى العبد أن يكسر فيه نخوة الحدّة فتربّص لهدأة منه ذات يوم وقال له :

هل جنيت جناية قط غضب بها عليك مولاك ؟

قال عمر : نعم .

فقال العبد : فهل عجّل عليك العقوبة ؟

قال : اللهم لا .

فقال العبد : فلم تعجّل عليّ ولم يعجّل عليك ؟

فاستحيا عمر ، وعاودته الرقة ، وتركه قائلاً : قم فأنت حر لوجه الله تعالى ![١٦] .

وحان لعمر أن يزور أباه في مصر وهو غلام ، فارتحل إليه يشدّه الشوق والحنين ، فلما جاء حلوان راح يتنقّل ويتدلّل كما شاء له هواه .

وخرج ذات يوم بصحبة شقيقه الأصبغ ، فأتيا اصطبل الخيل ، وبينما هو يلعب بلا حذر ، ويمضي في غفلة من وراء الخيل رمحته بغلة ، فشجّت رأسه ، فصاح الأصبغ ضاحكاً : الله أكبر ! هذا أشجّ بني مروان الذي يملك[١٧] !

وبلغ الخبر دار الأمير فأسرعت أم عاصم إلى ابنها وبلغت مكانه قبل أن يبلغه أبوه ، وأقبلت عليه تضمّه إليها وتمسح الدم عن وجهه[١٨] ، ثم لم تمسك

(١٦) مروج الذهب ٢ : ١٢١ وانظر الخليفة الزاهد ص١٩ .
(١٧) الخليفة الزاهد ص٢١ .
(١٨) تاريخ الطبري ٥ : ٣١٩ .

حدّتها حين علمت أن الأصبغ كان يضحك ، فأقبلت على زوجها تعذله وتلومه وتقول : أما الكبير فيُخدم ، وأما الصغير فيُكرم ، وأما الوسط فيضيع !

وجعل الوالد يغضي ويمسح الدم عن وجه ابنه وهو مغتاظ على الأصبغ لما بلغه من ضحكه عند سقوط عمر ، وكان الأصبغ يردد ويقول : لم تضحكني شماتة به أيها الأمير ! ولكني كنت أرى العلامات من أشجّ بني أمية مجتمعة فيه إلا الشجّة ، فلما سقط وشُجّ تكاملت العلامات فيه ، فسرّني وأضحكني . . .

سكت الأمير برهة ، وراح يتأمل الشجّة فعلته دهشة ومال إلى زوجته قائلاً : ويحك ! إنه أشجّ بني مروان ، وإنه لسعيد[19] !

منذ ذلك الحين صار عمر موضع الحسد من أمراء بني أمية ، وكان عمه عبد الملك يؤثره ويقرّبه منه ، فعاتبه أحد أبنائه على ذلك فقال : أوما تعلم سبب ذلك ؟ قال : لا ، فقال عبد الملك : إنه سيلي الخلافة يوماً ، وهو أشجّ بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن تملأ جوراً ، فما لي لا أحبه ولا أدنيه[20] !

ولهذه الشجّة روايات وأخبار متواترة وردت في صفحات الكتب ؛ ومنها ما يقول إن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، رأى رؤيا ، فقام منها يمسح النوم عن وجهه ويعرك عينيه ويقول : مَن هذا الذي يكون أشجّ من ولدي ، ويسير بسيرتي[21] ؟ ويقول : إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً[22] .

ودأب عبد الله بن عمر يقول قولة أبيه : ليت شعري ! من هذا الذي من

(١٩) ابن الجوزي ص٧ والأغاني ٨ : ١٤٩ .
(٢٠) الخليفة الزاهد ص٢٣ .
(٢١) ابن عبد الحكم ص١٨ .
(٢٢) تاريخ الخلفاء ص٢٢٩ والخليفة الزاهد ص٢٠ .

ولد عمر في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلاً[٢٣] !

وقال الوليد لمسلم : بلغنا أن رجلاً كان بخراسان قال : أتاني آتٍ في المنام فقال : إذا قام أشجّ بني مروان فانطلق فبايعه فإنه إمام عدل ، فجعلت أسأل كلما قام خليفة ، حتى قام عمر بن عبد العزيز ، فأتاني ثلاث مرات في المنام ، فارتحلت إليه فبايعته[٢٤] .

كان عمر ، في حداثته ، معلّقاً بأخواله ، يرى فيهم القدوة الصالحة والمثل الأعلى . وكان إذا زار خاله عبد الله يقول لأمه : يا أمه ، أحب أن أكون مثل خالي عبد الله ، فتتأفّف الوالدة ، وتستكثر على ابنها هواه ، وتقول له : اعزب ، اعزب ! .

ولم تكن أم عاصم مخطئة أو مبالغة فيما تستكثر ، فقد كان عبد الله بن عمر من أعظم آل الخطاب بعد أبيه .

وما من أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه عبد الله ، ولم يعلق قلب رجل بالعبادة والخير كما علق قلب عبد الله ، حتى قال سعيد بن المسيب : لو شهدتُ لأحد أنه من أهل الجنة لشهدت لعبد الله بن عمر[٢٥] .

ولم تخب أحلام عمر ، بل أثمرت وأينعت حتى أوشك أن يكون مهدي الأمة كما يقول وهب بن منبه[٢٦] .

وكان ميمون بن مهران يقول : إن الله كان يتعهّد الناس بنبيٍّ بعد نبيّ ، وإن الله تعهّد الناس بعمر بن عبد العزيز[٢٧] .

---

(٢٣) ابن الجوزي ص٧ .
(٢٤) تاريخ الخلفاء ص٢٣٣ .
(٢٥) وفيات الأعيان ٢ : ٢٣٤ .
(٢٦) تاريخ الخلفاء ص٢٣٣ .
(٢٧) نفس المصدر ص٢٣٣ .

وقال محمد بن فضالة : مرَّ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز براهب في الجزيرة ؛ فنزل إليه الراهب ولم ينزل لأحد قبله ، وقال : أتدري لم نزلت إليك ؟ قال : لا . قال : لحقِّ أبيك علينا ، إنا نجده في أئمة العدل بموضع رجب من الأشهر الحرم(٢٨) .

وعن حبيب بن هند الأسلمي قال : قال لي سعيد بن المسيب : إنما الخلفاء ثلاثة : أبو بكر ، وعمر وعمر بن عبد العزيز ، قلت له : أبو بكر وعمر قد عرفناهما ، فمن عمر ؟ قال : إن عشت أدركته ، وإن متّ كان بعدك ، قلت : ومات ابن المسيب قبل خلافة عمر(٢٩) .

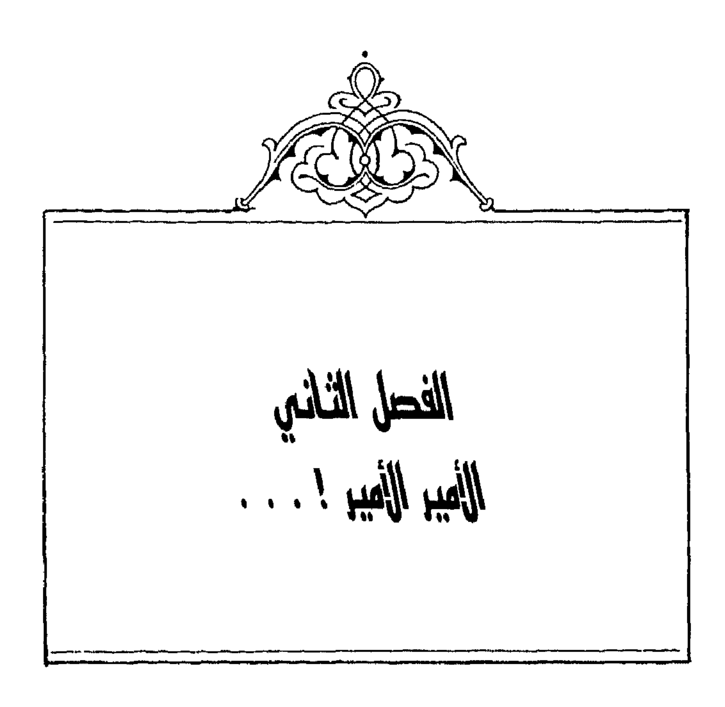
وقال الحسن : إن كان مهدي فعمر بن عبد العزيز ، وإلا فلا مهدي إلا عيسى بن مريم(٣٠) . هذا قليل مما قيل حول عمر بن عبد العزيز وسيرته ، ولو أدركت أم عاصم ما سيصير إليه ولدها لما استكثرت عليه أن يتشبّه بخاله عبد الله ابن عمر! .

وبلغ الفتى سنّ الرشد ، ورآه عمه عبد الملك قد خطا في مدارج العلم والاجتهاد والجاه ما يجعله جديراً بإمرة الناس ، فرأى أن ينصّبه على إقليم صغير ليزداد دراية ومعرفة ، فولّاه خناصرة ، فأقام بها حتى مات عبد الملك واستخلف الوليد ، فأرسل إليه الوليد بإمرة المدينة بعد أن خلع عنها هشام بن اسماعيل .

وكان عمر قد وهب له بنو أمية هبات كثيرة ، وضياعاً منتشرة غنية ، بالإضافة إلى ما ورثه عن أبيه وأهل بيته ، حتى صار له من الغنى والثروة ما ليس لغيره من كثير من الأمراء .

---

(٢٨) نفس المصدر ص٢٣٣ .
(٢٩) نفس المصدر ص٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٣٠) نفس المصدر ص٢٣٤ .



الفصل الثاني

الأمير الأمير ! . . .

* اتّق الله يا بن كعب ! لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها .
* كان أول من أيقظني مزاحم ، فوالله كأنما كشف عن وجهي غطاء !
* كان عمر كلما صنع خيراً وبشّره أصحابه بالثواب يقول : وكيف بخبيب على الطريق !



فيَ سنة سبع وثمانين ولي عمر بن عبد العزيز إمرة المدينة ، ولاّه الوليد ابن عبد الملك ليهدّيء به النفوس الثائرة ويكبح به جموح العواطف النافرة . وكان ذلك بعد هشام بن اسماعيل المخزومي الذي كثر إيذاؤه للناس ، وخصّ منهم أهل البيت بالبلاء الشديد .

قدم عمر المدينة في ربيع الأول ، وثقله على ثلاثين بعيراً ، فنزل دار جده مروان ، حيث كان من أكبر دورها وأعزها ، وجعل يُدخل عليه الناس فيسلمون ؛ فلما صلى الظهر دعا عشرة من الفقهاء الذين في المدينة : عروة بن الزبير ، وأبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وسليمان بن يسار ، والقاسم ابن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عبيد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه ، فقال لهم :

إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ، لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظُلامة فأحرّج الله على مَن بلغه ذلك إلا بلّغني . فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٦٧٢ .

كان عمر يرى في هؤلاء الفقهاء المثل الأعلى والقدوة الصالحة ، فكان يرى في ابن عتبة مثال الراعي الشفيق على إبله ، يقسو عليها ليجنبها مواطن الهلكة ، وكان يرى في القاسم بن محمد أعدل الناس وأحقهم بالخلافة ، ويرى في علي بن الحسين زين العابدين خيرة الناس وسيد العالمين . دعا عمر هؤلاء الفقهاء ليأخذوا بيده ويشيروا عليه ، وكان أخذ على الوليد عهداً حين قال له : إن أباك ولّى من كان قبلي ، فأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم . فلم ير الوليد إلا أن يقبل لأنه يريد رضا أهل المدينة ، فقال لعمر : إعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا إلا درهماً واحداً[٢] .

لكن عمر لم يكن في قرارة نفسه قد استقر رأيه على ولوج الطريق التي يرسمها هؤلاء الصلحاء ، إنما بدا أنه دعاهم وهو متأثر بهم حين كان غلاماً في مرحلة التأديب والتعليم . لقد انحرف عن طريق مستشاريه ، وراح يجمع مع العلم رواية الشعر ، ويجمع إلى الفقه سماع الغزل والغناء وصناعة الألحان ، فروى عن الأخطل إنشاده بين يدي عبد الملك[٣] وروى عن ابن الخطيم . وأذن للشعراء والرجّاز أن ينشدوا بين يديه ، فأجاز دُكين الراجز خمس عشرة ناقة من كرائم الإبل[٤] . وجاء نصيب وهو بالمسجد وأراد أن ينشده من مراثيه في أبيه فقال له : لا تقل فتحزنني ، وطلب إليه أن ينشده غزلاً . ودخل عليه حُمَيد الأمجّي المسمّى « أخا الخمر » لكثرة شربه لها ووصفه إياها فلم يردّه ، وسمع لما ينشده[٥] .

سمع عمر الأصوات وطرب لها ، ولعلّه تمادى فصفّق بيديه ورجليه ،

---

(٢) ابن الجوزي ص٣٢ .
(٣) الموشح ص١٣٧ .
(٤) الأغاني ٨ : ١٤٩ .
(٥) معجم البلدان : ٣٣٠ .

وغنى ووضع الألحان للغناء ، حتى انه كان يلهي بحسن صوتـه من انقطع في المسجد للصلاة . وقد رووا أنه دخل المسجد ذات ليلة فصلى قريباً من سعيد ابن المسيب ، ورفع صوته بالتلاوة ، فقال سعيد لغلامه : يا بُرد ، نحِّ عنا هذا القارىء فقد آذانا بصلاته . وتمادى عمر في صلاته وتلاوته ، فعاد سعيد لغلامه وقال له : ويحك يا برد ! ألم أقل لك نحِّ هذا القارىء عنا ؟ فهاب الغلام أن يقول للأمير شيئاً فرفع صوته قائلاً لسعيد : ليس المسجد لنا ! فسمع عمر فأدرك فأخذ نعليه وتنحّى إلى ناحية من المسجد وصلى(٦) .

هذه السيرة لم ترق في أعين الفقهاء الذين دعاهم واستشارهم في بدايـة إمرته على المدينة ، فأخذوا يلومونه لعله يُقصـر أو يسلك طريقـاً قويمـاً ، وقد حدث أن كان ذات يوم يمر بالمدينة وهو يسحب ثوبه ويجر ذيله ، فناداه محمد ابن كعب القرظيّ قائلاً : يا عمر ، إن رسول الله (ص) قال : « ما جاوز الكعبين فهو في النار ! » فالتفت إليه عمر مُغضباً وأغلظ عليه في الردّ فقال : اتق الله يابن كعب ! لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها(٧) .

لقد ضاق عمر بابن كعب حين نهاه : من هنا يغلب الظن أن عمر لم يكن يريد من الفقهاء إلا أن يرفعوا إليه مظالم الناس ، ويشيروا عليه حين يستشير ، أما التعرّض له في خاصة نفسه فما كان يريده أو يصطبر عليه .

هذه الغفلة لم تدم طويلاً ، فلقد أعقبتها صحوة أعادت الأميـر إلى جادّة الحق والصواب .

لقـد ضاقت نفس مـزاحم بن أبي مزاحم مـولى عمر وهـو يسمع النـاس يرددون « الأمير الأمير » فانتظر ريثما تحين فرصة ، ولم يطل به الانتظار فحدث

---

(٦) ابن عبد الحكم ص٢٢ .
(٧) ابن عبد الحكم ص١٤٣ .

أن حبس عمر رجلاً ، وجاوز في حبسه القدر ، فكلّمه مزاحم في إطلاقه ، فقال له عمر : ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ ، فوجد مزاحم الفرصة قد سنحت ورأى الأمرْ قد جاوز حدّه فقال له مغضباً : يا عمر بن عبد العزيز ، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة ، وفي صبيحتها تقوم الساعة يا عمر ! ولقد كدت انسى إسمك مما أسمع : قال الأمير قال الأمير !

فقال عمر كلمته الهادئة : إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك ، فكأنما كشف عن وجهي غطاءً [٨]

لقد أعقب هذه اليقظة امتحان صعب ، فقد جاء أمر الوليد إلى عمر بأن يوسّع مسجد المدينة ، وكان أبوه عبد الملك حاول ذلك ثم كفّ عنه لأن أهل المدينة أنكروا عليه ذلك . رأى الوليد أن الفرصة فد سنحت ، فعمر بن عبد العزيز يتمتع بمكانة مرموقة ، فأخواله من آل الخطاب ، وهؤلاء لهم شأن عند أهل المدينة ، وهو الذي استطاع أن يجمع الفقهاء حوله ويستشيرهم . هذه الأمور كانت كفيلة بأن ترضي من لم يكن راضياً من أهل المدينة .

وشمّر عمر عن ساعديه ، وتقدّم معاونوه ، وجلّهم من وجوه الناس وسرواتهم ، يدلونه على أعلام المسجد ويقدرونه ويضعون أساسه[٩] . وأدخل عمر الحجرات بالمسجد ، واشترى ما بنواحيه ، ثم بنى ووسّع وزخرف ، وقدّم القبلة ، وجوّف المحراب ، ورفع المنارة ، فكان أول من أحدث تجويف المحاريب في المساجد[١٠] .

ولم يخفِ الوليد دهشته بعد إنجاز هذا العمل الذي طالما دغدغ مشاعر الخلفاء من قبله وكان يقابل دائماً بالرفض من أهل المدينة ، وقد تمّ اليوم في

---

(٨) ابن الجوزي ص١٤٠ .
(٩) مسالك الأبصار ١ : ١٢٦ .
(١٠) النجوم الزاهرة ١ : ٦٧ و٢١٥ .

عهده وبمعونة صاحب الروم الذي أمدّه بالعديد من الفعلة ، وبمثاقيل الذهب وأحمال الفسيفساء(١١) .

قلنا إن الوليد لم يخف دهشته ، ولكنه لم يصرّح عن تلك الدهشة بالمباركة وتطييب خاطر عمر والثناء عليه ، إنما عبّر عنها باستغلاله مكانة عمر من أهل المدينة فكتب إليه أن يسهّل الثنايا ، ويحفر الآبار ، وينشيء الفنادق والخانات على طريق الحاج ، ثم أمره أن ينشيء فوّارة بالمدينة فعملها وأجرى ماءها ، فبدت ذات منظر رائع وفن معجب أنيق . فلما حجّ الوليد ورآها أعجبته ، فأمر لها بقوّام يقومون عليها ، وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها(١٢) .

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره أن يقف هشام بن اسماعيل للناس ، وكان سيء الرأي فيه ، وكان هشام يسيء جوار علي بن الحسين ، فخافه هشام ، فتقدّم علي بن الحسين إلى خاصّته ألا يعرض له أحد بكلمة ، ومرّ به علي وقد وقف للناس ولم يعرض له ، فناداه هشام(١٣) : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(١٤) .

لما أتمّ عمر ما أُمر بتشييده وتسهيله وحفره وإنشائه جُوزي من الوليد بأن جُعل عاملاً على مكة والطائف مع إمرة المدينة ، ثم عقدت له عام تسعين راية الإمارة على كل أنحاء الحجاز(١٥) .

حج الوليد في سنة إحدى وتسعين ، لكنه قبل ذلك كتب إلى عمر بما أراد ، فرحّب عمر بالخليفة ، وخرج يتلقّاه في موكب عظيم فيه خاصة أهل

---

(١١) تاريخ الطبري ٥ : ٢٢٣ .
(١٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤ : ٥٣٣ .
(١٣) الكامل في التاريخ ٤ : ٥٢٦ ، ٥٢٧ وتاريخ الطبري ٣ : ٦٧٢ ، ٦٧٣ .
(١٤) سورة الأنعام ـ الآية١٢٤ .
(١٥) تاريخ الطبري ٥ : ٢٣٠ .

المدينة ووجهاؤها .

وأقبل الوليد راكباً ، فاستقبله الناس ركباناً ، فأسرع حاجبه يصرخ فيهم : انزلوا لأمير المؤمنين ! فنزلوا .

ثم أشار إليهم الوليد أن يركبوا . ثم دعا عمر فسايره حتى نزل بذي خشب على مسيرة ليلة واحدة من المدينة(١٦) ، ثم أحضر عمر أصحابه فدعاهم الوليد رجلاً رجلاً فسلموا عليه ، ودعا بالغداء فتغدوا عنده ذلك اليوم .

وأراد الوليد أن يرى مسجد المدينة ، فأُخلي له قبل أن يصل إليه ، ولبّى الناس جميعاً أمر عمر في مغادرة المسجد إلا سعيد بن المسيب ، فإنه جلس عند القبلة كعادته لا يبالي ، ولم يجرؤ أحد من الحراس أن يخرجه . وكان بين الوليد وبين سعيد حساب قديم يعود إلى أيام عبد العزيز بن مروان .

ودخل الوليد المسجد فلم ير فيه أحداً . ثم حانت منه التفاتة فرأى سعيداً جالساً عند القبلة ، وبلغت الحيرة بعمر مبلغها ، وعرف الوليد أنه أبى أن يخرج ، وحاول عمر أن يفوّت الأمر ، وكل مكان في المسجد كان يهون حين يجلس فيه سعيد إلا القبلة ، فقد كان الوليد مشغوفاً بأن يراها ، لأنها والمئذنة فنُّه الذي ابتدعه هو وعمر تشبّهاً بمآذن الشام .

جعل عمر يعدل بالوليد في ناحية المسجد لئلا يرى سعيداً ، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، لقد رأى الوليد سعيداً فقال : من هذا الشيخ ؟ أهو سعيد ؟ فقال عمر : نعم . . . لو علم بمكانك لقام فسلّم عليك ، لكنه ضعيف البصر ، خائر القوى . . . فقال الوليد : قد علمنا حاله ، ونحن نأتيه(١٧) .

---

(١٦) معجم البلدان ٣ : ٤٤٠ .

(١٧) النجوم الزاهرة ١ : ٢٢٣ .

هذه الحادثة العابرة تركت أثراً سيئاً في نفس الوليد ، فقد أدرك ما في نفوس أهل المدينة منه ومن أهل بيته ، فغضب ولم يكظم غيظه ، وانتظر يوم الجمعة فأمّ المسجد ، وخطب في الناس قاعداً ، وهدّد وتوعّد . . . ثم ترك المدينة على عجل .

فعلت هذه الخطبة فعل النار في الهشيم ، فكانت نفخة في رماد ، سرعان ما تكشّفت عن جمر ملتهب ، وأحقاد دفينة .

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هي[١٨]

فقد ثارت النفوس المتهيجة ، واضطرم لهب الغضب في المدينة ، ففتحت أبوابها تستقبل الخارجين على طاعة الحجاج أو الفارين منه . واندفع عمر بن عبد العزيز مع الغاضبين ، فتغاضى عن الوافدين ، وأحسن إليهم ، ورقّ لحالهم ، ثم كتب إلى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه الدماء ، وخوّفه عواقب ما يفعله بأهل العراق[١٩] .

وفي الموسم الثاني عقد الوليد لواء الحجّ للحجّاج بن يوسف ، على أن يمرّ بالمدينة وهو يغدو للحجّ ، وكتب إلى عمر بذلك ، وعرف أهل المدينة فاضطربوا وهاجوا ، فكتب عمر إلى الخليفة يستعفيه أن يمّر الحجاج به لئلا يؤذي مشاعر أهلها ، فخاف الوليد طغيان الأمر وإفلات الزمام من يده فأمر الحجّاج أن يجاوز المدينة في طريقه ويسلك إلى مكة من طريق آخر[٢٠] .

وطفحت القلوب بالضغائن ، فلا الوليد راقه ما رأى وشاهد من غضب أهل المدينة عليه ، وعصيان سعيد بن المسيب ، واعتذار عمر له ، ولا الحجاج

---

(١٨) البيت لزفر بن الحارث الكلابي زعيم القيسية ، قيل في هجاء الأمويين .
(١٩) النجوم الزاهرة ١ : ٢٢٦ .
(٢٠) ابن عبد الحكم ص٢٤ .

استطاع أن يكبت غيظه وحقده على عمر وقد علم ما علم من أمره ، فراح يشكوه ويدسّ له ويحرّض عليه ويقول للوليد : إن كثيراً من مرّاق أهل العراق قد جلوا عنه ولجأوا إلى المدينة ومكة ، وإن ذلك وهن وضعف ! وما زال الحجاج بالوليد حتى صدّقه وأذعن له ، وأرسل يستشيره فيمن يولّيه الحجاز إذا عزل عمر .

وأحسّ عمر بشيء في نفس الوليد ، ولم يطمئن للحجاج الذي راح يدسّ ويبذر الشك والنميمة ، وهاله أن يرى أهل المدينة يواجهون قدرهم المحتوم ، ويسلط عليهم الحجاج سهام الحقد والغدر . . . فاندفع ينفّذ أوامر الخليفة كي يرضيه ويتركه يمضي على خطته في الحجاز . وكان أول الغيث أن أرسل إليه الوليد أن يضرب على المدينة بعثاً ، فصدع عمر بالأمر وأخرج منها ألفي رجل للقتال . ثم كتب إليه الوليد أن يضرب رجلاً مائة سوط ، فضرب الرجل ولم يرع فيه حقاً ، وكان له صاحباً وكان أهله عليه كرماء . وأحسّ عمر أن الهوّة تزداد اتساعاً وعمقاً بينه وبين الوليد ، فلم ير بدّاً من تنفيذ أوامره ليطفىء ضغينته عليه وليهوّن من جفائه ، ويكذب رأي الحجاج فيه . لكنه في قرارة نفسه كان يسمع ضجيج أهل المدينة وصدى أصواتهم وكأنه يناديه : « ويلي عليك وويلي منك يا عمر » .

لقد اجتهد عمر أن ينفي التهمة التي حاكها حوله الحجاج بأنه يأوي أعداء الوليد من العراق ، وكان خيال القطيعة بينه وبين الخليفة يلوح أمام ناظريه ، فضرب خبيباً ونفّذ فيه العقوبة وقسا عليه .

ورأى عمر حين ضربه أنه التهب بالحمّى ، ولكنه دعا به وبرّد له ماء في جرّة وصبّها عليه أمام المسجد في غداة باردة شاتية فكزّ فيها خبيب ويبس وخرّ مغشياً عليه ، ودخل في النزع(٢١) ، ثم أمر عمر به فنقل إلى دار عمر بن مصعب ببقيع أهله ، ومضى عمر إلى دار مروان .

---

(٢١) هو خبيب بن عبد الله بن الزبير .

بينما أهل خبيب جلوس حول جثته جاءهم رجل من خاصة عمر يقال له « الماجِشون » يستأذن عليهم ، فقال عبد الله بن عروة : إئذنـوا له . فلما دخل قال عبد الله : كأن صاحبك في مرية من موته ؟ اكشفوا له عنه . فكشفوا ، فلما رآه المـاجشون ميتـاً انصرف إلى دار مـروان وأشـاع الخبـر . فسقط عمـر إلى الأرض مغشياً ، ثم استفاق وأخذ يسترجع وندم على ما كان(٢٢) .

لقد سبق السيف العذل ، وندم عمر ولات ساعة مندم ، فقد أرّقت هذه الفعلة عيشه الناعم ، وانتابته نوبة من الجمود والذهول ، وطغى حزنه عليه حتى كاد يقتله . ولـم يكن عمر قبل ذلك يذكر بكثير من العدل والزهد(٢٣) ، بل كان رجلاً يعنى بزينته وكان ممتلىء الجسم ريّان . وكان يونس بن أبي شعيب يقول فيه : شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وإن حُجزة أزاره لغائبة في عُكنه(٢٤) .

وكـاد عمر يتلف من الجـزع بالـرغم من أن آل خبيب عدّوا قتـل خبيب خطأ ، لكن الناس ، وخاصة الخصوم منهم ، عدّوها غلطة عمر الكبرى . فكان إذا غضب رجل منهم على عمر ذكرها له فانكسر خاطره ، وكان كلما أحسن إلى آل خبيب قال الناس : دية خبيب . وأما عمر الواجم النادم فكان كلما صنع خيراً وبشّره أصحابه بالثواب يقول : وكيف بخبيب على الطريق !

وعلم القـاسم بن محمد بن أبي بكـر بجزع عمـر وتلفه فـذهب إليه كي يخفّف من حـزنه ويمسـح من بلواه ، وأخـذ يـردّه إلى التـوبـة ويحسن لـه من التعـزية ، وكـان فيما يقـول له : أعلمت أن من مضى من سلفنـا كانـوا يحبّـون استقبال المصائب بالتجمّل ، ومواجهة النّعم بالتذلّل ! وكأنمـا عمر كـان يبيت

(٢٢) تاريخ الطبري ٥ : ٢٥٦ .
(٢٣) الخليفة الزاهد ص٥٧ .
(٢٤) تذكرة الحفاظ : ١١٢ .

على لهفة من تعزية وشوق إلى سلوى ، فنَصَل من ثوبه الحزين وراح من عشية يومه في مقتطعات من حِبرة أهل اليمن ، شراؤها ثمانمائة دينار ، وفارق ما كان يصنع[٢٥] .

وفيما كان عمر يفارق حزنه ويخلع ثوب كآبته جاء كتاب الحجاج إلى الوليد يشير عليه بتولّي خالد بن عبد الله القسري على مكة ، وعثمان بن حيّان المرّيّ على المدينة ، فاستحسن الوليد مشورة الحجاج ، وأرسل بعزل عمر .

وتحقّقت مخاوف عمر ، فهذا عثمان بن حيان يدخل المدينة ويتهدد أهلها ويقول : إن عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف ، والله ما أنتم بأصحاب قتال ! فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وعضّوا على النواجذ ، فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، وإنكم في فضول كلام غيرهُ ألزم لكم ، فدعوا عيب الولاة ، فإن الأمر يُنقَض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد[٢٦] .

ثم التفت إلى أهل العراق لم يدع أحداً منهم تاجراً أو غير تاجر إلا أخرجه من كل بلد حتى صاروا في الجوامع والطرقات ، وأقسم يقول : إني والله لا أُوتي بأحد آوى أحداً منهم أو أكراهُ منزلاً إلا هدمت منزله وأنزلت به ما هو أهله[٢٧] .

أما خالد بن عبد الله القسري فلم يكن شأنه في مكة أقل من شأن عثمان ، فأُصيب الناس بالبلاء الكبير ، وترحّموا على أيام عمر وافتقدوه فلم يجدوه !

---

(٢٥) صفة الصفوة ٢ : ٦٧ .
(٢٦) ابن الجوزي ص٣٥ .
(٢٧) تاريخ الطبري ٥ : ٢٥٩ .
(٢٨) تاريخ الطبري ٥ : ٢٥٨ .



الفصل الثالث
المسؤول الأول

* يا أيها الناس ، إني قد ابتليت بهـذا الأمر من غيـر رأي كان منّي فيـه ، ولا طِلبةٍ ولا مشـورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفكسم .

* يا أيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم .

* إني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقّاً .



أ ـ خلافة عمر

استُخلف عمر بن عبد العزيز في سنة تسع وتسعين للهجرة . وسبب ذلك أن سليمان بن عبد الملك كان قد مرض بدابق[1] . فلما ثقل عليه المرض عهد في كتاب كتبه لبعض بنيه ، وهو غلام لم يبلغ ، فقال لـه رجاء بن حيـوة : ما تصنع يا أمير المؤمنين ؟ إنه ممّا يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح . فقال سليمان : أنا أستخير الله وأنظر فيه ، ولم أعـزم عليه ، فمكث سليمان يوماً أو يومين ثم خرّقه ودعا رجاء فقال : ما ترى في ولدي داود ؟ فقال رجاء : هو غائب عنك بالقسطنطينية ، ولا تدري أحيٌّ هـو أم لا . قال : فمن ترى ؟ قال رجاء : رأيك ، يا أمير المؤمنين . قال : فكيف ترى في عمـر ابن عبد العزيز ؟ قال رجاء : أعلمه والله خيِّراً فاضلاً سليماً . قال سليمان : هو على ذلك، ولئن ولّيته ولم أُولّ أحـداً سواه لتكـونّن فتنة ولا يتـركونـه أبداً يلي

(١) دابق : قرية قرب حلب ، وكان سليمان بن عبد الملك قد عسكر بها وعزم أن لا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي الجزية ، فشتى بدابق شتاءً بعد شتاء إذ ركب ذات يوم عشيّة من يوم جمعة فمرّ بالتل الذي يقال له تل سليمان اليوم ، فرأى عليه قبراً فقال : من صاحب هذا القبر ؟ قالوا : هذا قبر عبد الله بن مسافع . فقال سليمان : يا ويحه لقد أمسى قبره بدار غربة ! ومرض سليمان في أثر ذلك ومات ودُفن إلى جانب قبر عبد الله بن مُسافع في الجمعة التي تليه أو الثانية . معجم البلدان ٢ : ٤١٦ ، ٤١٧ .

عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده ، وكان عبد الملك قد عهد إلى الوليد وسليمان أن يجعلا أخاهما يزيد وليّ عهد ، فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر ، وكان يزيد غائباً في الموسم . قال رجاء : رأيك. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني قد ولّيتك الخلافة بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم(٢) . وختم الكتاب . وأرسل إلى كعب بن جابر العبسي صاحب شرطته فقال : ادعُ أهل بيتي . فجمعهم كعب ، ثم قال سليمان لرجل بعد اجتماعهم : اذهب بكتابي إليهم وأخبرهم به ومُرْهم يبايعوا من ولّيت فيه .

ففعل رجاء . فقالوا : ندخل ونسلّم على أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . فدخلوا فقال لهم سليمان : في هذا الكتاب ، وهو يشير إلى الكتاب الذي في يد رجاء بن حيوة ، عهدي فاسمعوا وأطيعوا لمن سمّيتُ فيه . فبايعوه رجلاً رجلاً وتفرّقوا .

قال رجاء : فأتاني عمر بن عبد العزيز فقال : أخشى أن يكون هذا أسند إليّ شيئاً من هذا الأمر ، فأنشدك الله وحرمتي ومودّتي إلّا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ذلك .

قال رجاء : ما أنا بمخبرك حرفاً . قال : فذهب عمر عنّي غضبان(٣) .

قال رجاء : ولقيني هشام بن عبد الملك فقال : إن لي بك حرمة ومودة قديمة وعندي شكر فاعلمني بهذا الأمر ، فإن كان إلى غيري تكلّمتُ ولله عليّ أن لا أذكر شيئاً من ذلك أبداً . قال رجاء : فأبيتُ أن أخبره حرفاً ، فانصرف

---

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٣٩ واليعقوبي ٢ : ٣٠١ .
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٤٠ .

هشام وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى ويقول : فإلى مَن إذاً نُحّيتْ عنّي ؟ أتخرج من بني عبد الملك[٤] .

قال رجاء : ودخلت على سليمان فإذا هو يموت ، فجعلتُ إذا أخذته سكرة من سكرات الموت حرفته إلى القبلة فيقول حين يفيق : لم يأنِ بعد . ففعلتُ ذلك مرّتين أو ثلاثاً ، فلمّا كانت الثالثة قال : من الآن يا رجاء إن كنتَ تريد شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فحرفته ، فمات . فلما غمّضته وسجّيته وأغلقتُ الباب أرسلتْ إليّ زوجته فقالت : كيف أصبح ؟ فقلتُ : هو نائم قد تغطّى . ونظر إليه الرسول متغطّياً فرجع فاخبرها ، فظنّتْ أنه نائم[٥] .

قال : فأجلستُ على الباب من أثقُ به وأوصيته أن لا يبرح ولا يترك أحداً يدخل على الخليفة . ثم خرجت فأرسلت إلى كعب بن جابر ، فجمع أهل بيته ، فاجتمعوا في مسجد دابق ، فقلتُ : بايعوا . فقالوا : قد بايعنا مرّة . قلتُ : وأخرى ، هذا عهد أمير المؤمنين ، فبايعوا الثانية ، فلمّا بايعوا بعد موته رأيت أني قد أحكمتُ الأمر فقلتُ : قوموا إلى صاحبكم فقد مات . قالوا : إنا لله وإنّا إليه راجعون ! وقرأتُ الكتاب ، فلّما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز قال هشام : لا نبايعه والله أبداً ، قلتُ : أضرب والله عنقك ، قم فبايع ، فقام يجرّ رجليه[٦] .

قال رجاء : فأخذت بضبعي[٧] عمر بن عبد العزيز فأجلسته على المنبر

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٤٠ .
(٥) المصدر السابق ٥ : ٤٠ .
(٦) المصدر السابق : ٤١ .
(٧) الضبعان : الكتفان .

وهو يسترجع(٨) لِما وقع فيه ، وهشام يسترجع لِما أخطأه ، فبايعوه .

وغُسّل سليمان وكُفّن ، وصلّى عليه عمر بن عبد العزيز ودُفن . فلّما دُفن أُتي عمر بمراكب الخلافة ولكلّ دابة سائس ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : مراكب الخلافة . قال : دابتي أوفق لي ، وركب دابّته وصُرفت تلك الدوابّ ، ثم أقبل سائراً ، فقيل له : أمنزل الخلافة ؟ فقال : فيه عيال أبي أيوب ، يعني سليمان ، وفي فسطاطي كفاية حتى يتحوّلوا . فأقام في منزله حتى فرّغوه(٩) .

قال رجاء : فأعجبني ما صنع في الدوابّ ومنزل سليمان ، ثم دعا كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً وأمره أن ينسخه ويسيّره إلى كل بلد .

سار عمر بعد البيعة وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال :

يا أيها الناس ، إني قد ابتُليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طِلبةٍ ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم . فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فَلِ أمرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعاً ، حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص) وقال :

أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء ، ليس من تقوى الله عزّ وجلّ خلف ، فاعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يُصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات ، وإن من لا

---

(٨) يسترجع : يردد «إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٩) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٤١ وانظر صفة الصفوة ٢ : ١١٤ .

يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباً حيّاً لمَعْرِق في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربّها عزّ وجلّ ولا في نبيّها ولا في كتابها ، إنما اختلفوا في الدنيا والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقّاً .

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال :

يا أيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيتُ الله فلا طاعة لي عليكم(١٠) .

وبلغ موتُ سليمان عبد العزيز بن الوليد ، وكان غائباً ، ولم يعلم ببيعة عمر ، فعقد لواء ودعا إلى نفسه ، فبلغه بيعةُ عمر بعهد سليمان ، فأقبل حتى دخل عليه ، فقال له عمر : بلغني أنك بايعت من قِبلك وأردتَ دخول دمشق ! فقال : قد كان ذاك وذلك إنه بلغني أن سليمان لم يكن عَهدَ لأحد فخفتُ على الأموال أن تُنهب . فقال عمر : لو بويعتَ وقمتَ بالأمر لم أنازعك فيه ولقعدتُ في بيتي . فقال عبد العزيز : ما أُحبّ أنه وليّ هذا الأمر غيرك ، وبايعه(١١) .

لما استقرّت البيعة لعمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك : إن أردت صحبتي فردّي ما معك من مال وحلي وجواهر إلى بيت مال المسلمين فإنه لهم ، فإني لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد ، فردّته جميعه .

فلما توفي عمر وولي أخوها يزيد ردّه عليها وقال : أنا أعلم أن عمر ظلمك ، فقالت : كلا والله . وامتنعتْ عن أخذه وقالت : ما كنتُ أطيعه حيّاً وأعصيه ميتاً ، فأخذه يزيد وفرّقه على أهله(١٢) .

---

(١٠) صفة الصفوة ٢ : ١١٤ و١١٥ .
(١١) تاريخ الطبري ٤ : ٦١ والكامل في التاريخ ٥ : ٤١ .
(١٢) الكامل في التاريخ ٥ : ٤١ و٤٢ .

قيـل : لما نـزل عمر أمـر بالستـور فهُتكت ، والثياب التي كـانت تبسط للخلفـاء فحُملت ، وأمر ببيعهـا وإدخال أثمـانها في بيت مـال المسلمين . ثم ذهب يتبوّأ مَقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني أقيل . قال : تقيل ولا تردّ المـظالم ؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان فإذا صلّيت الظهر رددتُ المظالم . قـال : يا أميـر المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الـظهر ؟ قـال : ادنُ مني أي بني ؛ فدنا منه ، فالتزمه وقبّل بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صُلبي من يُعينني على ديني(١٣) .

وعن بعض خاصته أنه حين أفضت إليه الخـلافة سمعـوا في منزلـه بكاءً عالياً . فسُئل عن البكاء فقيل : إن عمر خيّر جواريه فقال : إنه قد نزل لي أمرٌ قد شغلني عنكنّ ، فمن أحبّ أن أعتقه أعتقته ، ومن أراد أن أُمسِكه أمسكته ولم يكن مني إليها شيء ، فبكين يأساً منه(١٤) .

---

(١٣) صفة الصفوة ٢ : ١١٥ .

(١٤) صفة الصفـوة ٢ : ١١٨ .

ب ـ ميثاق عمر بن عبد العزيز

لم تقم شهرة عمر بن عبد العزيز على زهده وتعبّده ، أو إلغائه الضرائب المترتبة على الداخلين في الإسلام وحسب ، إنما قامت على كونه الخليفة الأموي الأول والوحيد الذي وضع قيوداً على رعاياه النصارى . ولقد دوّنت بنود هذا الميثاق في صيغ مختلفة ، ورد معظمها في المصادر المتأخرة ، وفي تضاعيف هذا الميثاق من العلاقات بين المسلمين والنصارى ما لم يكن قد حصل في أوائل الفتح في عهد عمر بن الخطاب .

ولكن أبرز المراسيم التي أصدرها الخليفة الأموي هي تلك التي حظرت على النصارى تقلّد المناصب في الدولة ، ومنعتهم لبس العمامة ، وشرطت عليهم أن يجزّوا مقادم رؤوسهم ، وألا يتشبّهوا بالمسلمين في لباسهم ، بل تكون لهم ملابس خاصة بهم ، وأن يشدّوا الزنانير في أوساطهم ، وألا يركبوا على سرج بل على إكاف ، ولا يحدثوا كنيسة ولا ديراً ولا صومعة ، وألا يرفعوا أصواتهم في الصلاة .

وكان بموجب تشريع ابن عبد العزيز هذا أنه إذا قتل مسلم نصرانياً فالعقوبة دية مفروضة ، وأنه يجب ألا تسمع شهادة نصراني على مسلم أمام القضاء .

والظاهر أن اليهود أيضاً سرت عليهم بعض نصوص هـذا القانـون . كما أنهم حُرموا من حق التوظّف[١٥] .

ويبدو أن زيف التاريخ على عمر ، فيما يتصل بأهل الذمة ، جاء من أنه كان قد نزع قبط مصر عن كورها ، وكانت في أيديهم حسبة المواريث[١٦] .

أما بشأن الكنائس ودور العبادة ، فلم يغب عن باله أن بقاءها من صلاح الأمـة ، وأن الكنائس من دور العبـادة التي تتهذب فيهـا النفوس وتصفـو. وقد قـدم عليه اثنان من الخوارج فسألاه عن أهل العهود فقال : لهم عهودهم ، فسألوا : هل يكلفهم فوق طاقتهم ؟ فقال : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فسألوه أن يخرّب الكنائس فأبى وقال لهم : هي من صلاح رعيتي ! ثم لم يهدم عمر كنيسة قديمة ولكنه هدم ما استحدث عملاً بما كان مسنوناً حين ذلك في العهود[١٧] .

---

(١٥) تاريخ العرب ٢٩٨ و٢٩٩ .

(١٦) الخليفة الزاهد ١٧٩ .

(١٧) العقد الفريد ٤ : ٤٣٦ والخراج لأبي يوسف ١٢٧ ، ١٣٠ .

جـ - إنجازات عمر

لا شك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز حاول أن يمحو الصورة القاتمة التي ارتسمت في أذهان العامة من أعمال بني أميّة ، فسمّى أعمالهم مظالم ، وكتب إلى عماله برفعها وأخذ رأيه بما يستجدّ من أمر المسلمين حتى لا يُظلم أحد . وأمرهم أن يحصّنوا سياستهم بالعدل بين الناس ، وينقّوا طرقهم من الجور ، ويلغوا الجزية عمّن أسلم .

كما منع الصدام بينه وبين الخوارج ، ومنع التعذيب والضرب بالسياط وغيرها من وسائل الإكراه في تحصيل الضرائب . وأرضى العلويين بأنه منع شتم الإمام علي الذي كان شائعاً آنذاك ، وردّ أرض فدك وكان معاوية قد أقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها لابنه عبد العزيز ، فورثها عمر . وحاول مساواة العرب بالموالي ، كما لم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يولِّ والياً إلا لكفاءته وعدله ، كما عزل الولاة الذين تجرأوا على الحق والعدل وولّى مكانهم المعروفين بالكفاءة والرحمة . وبذلك ظهر الإلتزام الديني واضحاً في عهده أملاً في امتصاص النقمة التي تولّدت ضد الأمويين على مرّ العصور .

١ - منع شتم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

كان بنو أميّة يسبون علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، إلى أن وُلّيَ الخلافة عمر بن عبد العزيز فترك ذلك ، وكتب إلى عمّاله في الآفاق بتركه .

وكـان سبب محبّته عليّـاً أنه قـال : كنت بالمـدينـة أتعلّم ، وكنت ألـزم عبيد الله بن عبد الله بن عُتبـة بن مسعود ، فبلغـه عنّي شيء من ذلك ، فـأتيتهُ يومـاً وهـو يصلّي ، فأطال الصلاة ، فقعدتُ انتظر فراغه ، فلّما فرغ من صلاته التفت إليّ فقـال لي : متى علمتَ أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الـرضوان بعد أن رضي عنهم ؟ قلتُ : لم أسمع ذلك . قال : فما الذي بلغني عنك في علي ؟ فقلتُ : معذرة إلى الله وإليك ! وتركتُ ما كنتُ عليه .

وكان أبي إذا خطب فنال من علي تلجلج فقلتُ : يا أبي ، إنك تمضي في خـطبتك فـإذا أتيت على ذكر عليّ عـرفتُ منك تقصيـراً ؟ قال : أَوَفـطنت لذلك ؟ قلت نعم . فقال : يا بني ، إن الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرّقوا عنّا إلى أولاده .

فلما وُلي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجلها ، فتـرك ذلك وكتب إلى عمـاله بتـركه وقـراءة : ﴿ **إنَّ الله يأمُـرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذي القُـربى** ﴾[١٨] فحلّ هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً وأكثروا مدحه بسببه ؛ فمن ذلك قول كثيّر عزّة :

وُليتَ فلم تشتمْ عليّـاً ولـم تُخفْ ... بـريّا ولم تتبـعْ مقـالـةَ مُجـرمِ
تـكلّمـتَ بـالحـقِّ المبيـنِ وإنّـمـا ... تُـبـيَّـنُ آيـاتُ الـهُـدى بـالتّكلُّمِ
وصدَّقتَ معروفَ الذي قلتَ بالـذي ... فعلتَ فـأضحى راضيـاً كـلُّ مسلم
ألا إنمـا يكفي الفتى بعـد زيغِـهِ ... من الأوَدِ البادي ثقافُ المقـوِّمِ[١٩]

فقال عمر حين أنشده هذا الشعر : أفلحنا إذاً[٢٠] .

---

(١٨) سورة النحل ـ الآية ٩٠ .
(١٩) الزيغ : الميل عن الحق . الأود : الكد والتعب . الثقاف : آلة تثقف بها الرماح .
(٢٠) الكامل في التاريخ ٥ : ٤٢ و٤٣ .

٢ ـ رد فدك إلى ولد فاطمة

أما فدك فهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله (ص) في سنة سبع للهجرة صلحاً . وذلك أن النبي (ص) لما نزل خَيْبَر وفتح حصونها ولم يبق إلا ثلث اشتد بهم الحصار ، راسلوا رسول الله (ص) يسألونه أن يُنزلهم على الجلاء ، ففعل .

وبلغ ذلك أهل فدك فأرسلوا إلى رسول الله (ص) أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك . فهي مما لم يوجف[٢١] عليه بِخيل ولا ركاب ، فكانت خالصة لرسول الله (ص) .

وفي فدك عين فوارة ونخيل كثير . وهي التي قالت فاطمة ، رضي الله عنها : إن رسول الله (ص) نحلنيها[٢٢] . فقال أبو بكر ، رضي الله عنه : أريد لذلك شهوداً . ثم أدّى اجتهاد عمر بن الخطاب بعده ، لما ولي الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين ، أن يردّها إلى ورثة رسول الله (ص) ، فكان علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، فكان علي يقول : إن النبي (ص) جعلها في حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول : هي ملك لرسول الله (ص) ، وأنا وارثه ، فكانا يتخاصمان إلى عمر ، رضي الله عنه ، فيأبى أن يحكم بينهما ويقول: أنتما أعرف بشأنكما أما أنا فقد سلّمتها إليكما ، فاقتصدا فيما يؤتي واحد منكما من قلة معرفة .

فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره أن يردّ فدك إلى ولد فاطمة ، رضي الله عنها . فكانت في أيديهم .

ولما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل في أيدي بني أمية حتى ولي

(٢١) يوجف : من وجف الفرس : إذا سار وعدا عدواً سريعاً .

(٢٢) نحل المرأة : أعطاها المهر .

أبـو العباس السفّـاح الخلافـة فـدفعهـا إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فكان هو القيّم عليها يفرّقها في بني علي بن أبي طالب .

فلمـا ولي المنصور وخـرج عليه بنـو الحسن قبضهـا عنهم ، فلمـا ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم ثم قبضها من بعده موسى الهادي إلى أيـام المأمـون حيث جاءه رسـول بني علي بن أبي طالب فطالب بها ، فـأمر أن يُسجّـل لهم بها ، فكتُب السجلُّ وقُرىء على المأمون ، فقام دعبل[٢٣] الشاعر وأنشد :

أصبـح وجـهُ الـزمـان قـد ضحكـا   بـردّ مـأمـون هـاشـم فـدكـا

وفي فدك اختلاف كثير ، فقد روي خبرها بحسب الأهواء ، ولعل أصحّ مـا ورد في ذلك مـا ذكره البـلاذري[٢٤] في كتـاب الفتـوح حيث قـال : بعث رسول الله (ص) بعد منصرفه من خيبر إلى أرض فدك محيصة بن مسعود ورئيس فدك يومئذ يوشـع بن نون اليهـودي يدعـوهم إلى الإسلام فـوجدهم مـرعوبين خائفين لما بلغهم من أخذ خيبر فصالحوه على نصف الأرض بتـربتها ، فقبـل ذلك منهم وأمضاه رسول الله (ص) وصار خالصاً له ، لأنه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، ولم يزل أهلها بها حتى أجلى عمر ، رضي الله عنه ، اليهود فوجّه إليهم من قوّم نصف التربة بقيمة عدل فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشام .

وكـان لمـا قُبض رسـول الله (ص) قـالت فـاطمـة لأبي بكـر : إن

---

(٢٣) دعبل : هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي ، شاعر هجاء ، أصله من الكوفة ، وكان بذيء اللسان مولعاً بالهجو ، وطال عمره فكان يقول : لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك ! توفي ببلدة تدعى الطيب بين واسط وخوزستان . الأعلام ٢ : ٣٣٩ .

٢٤) البلاذري : هو أحمد بن يحيى ، مؤرخ جغرافي نسّابة ، وكتابه المشار إليه هو فتوح البلدان . مات في أيام المعتمد سنة ٢٧٩هـ . الأعلام ١ : ٢٦٧ .

رسول الله (ص) جعل لي فدك فأعطني إياها ، وشهد لها علي بن أبي طالب ، فسألها شاهداً آخر فشهدت لها أم أيمن مولاة النبي (ص) فقال : قدعلمتِ يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، فانصرفت .

وروي عن أم هانىء أن فاطمة أتت أبا بكر فقالت له : من يرثك ؟ فقال : ولدي وأهلي ، فقالت له : فما بالك ورثت رسول الله (ص) دوننا ؟ فقال : يا بنت رسول الله ما ورثت ذهباً ولا فضة ولا كذا ولا كذا . . . فقالت : سهمنا بخيبر وصدقتنا بفدك ! فقال : يا بنت رسول الله سمعت رسول الله (ص) يقول : إنما هي طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتي ، فإذا متّ فهي بين المسلمين .

وعن عروة بن الزبير : أن أزواج رسول الله (ص) أرسلن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألن مواريثهن من سهم رسول الله (ص) فقال أبو بكر : سمعت رسول الله (ص) يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ، إنما هذا المال لآل محمد لنائبتهم وضيفهم ، فإذا مت فهو إلى والي الأمر من بعدي .

فلما ولي عمر بن عبد العزيز خطب الناس وقصّ قصة فدك وخلوصها لرسول الله (ص) وأنه كان ينفق منها ويضع فضلها في أبناء السبيل ، وذكر أن فاطمة سألته أن يهبها لها فأبى وقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك ، وكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، وإنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما قُبض فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي مثله ، فلما ولي معاوية أقطعها مروان بن الحكم ، وإن مروان وهبها لعبد العزيز ولعبد الملك إبنيه ثم إنها صارت لي وللوليد وسليمان ، وإنه لما ولي الوليد سألته فوهبها لي وسألت سليمان حصته فوهبها لي أيضاً فاستجمعتها ، وإنه ما كان لي مال أحب إليّ منها ، وإنني أشهدكم أنني رددتها على ما كانت عليه في أيام النبي (ص) .

فلما كانت سنة ٢١٠هـ أمر المأمون بدفعها إلى ولد فاطمة وكتب إلى قُثم ابن جعفر عامله على المدينة أنه كان رسول الله (ص) أعطى ابنته فاطمة فدك وتصدّق عليها بها وأن ذلك كان أمراً ظاهراً معروفاً عند آله ، ثم لم تزل فاطمة تدعي منه بما هي أولى من صدّق عليه ، وأنه قد رأى ردّها إلى ورثتها وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، ليقوما بها لأهلهما[٢٥] .

فلما استخلف جعفر المتوكل ردّها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله (ص) .

وفي هذه السنة وجّه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة[٢٦] ، وهو بأرض الروم ، يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ، ووجّه له خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحثّ الناس على معونتهم .

وفيها أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا من المسلمين جماعة ، فوجّه عمر حاتم بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الترك ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وقدم على عمر منهم بخمسين أسيراً .

وفيها عزل يزيد بن المهلّب عن العراق ووجّه إلى البصرة عدي بن أرطاة الفزاري وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب العدويّ القُرشي ، وضم إليه أبا الزناد وكان كاتبه ، وبعث عديٌّ في أثر يزيد بن المهلب

(٢٥) معجم البلدان ٤ : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٢٦) مسلمة : هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، أمير وقائد من أبطال عصره . كان يُلقّب بالجرادة لصفراء . له فتوحات مشهورة ، متوفى سنة ١٢٠هـ . تهذيب التهذيب ١٠ : ١٤٤ .

موسى بن الوجيه الحميري(٢٧) .

٣ ـ خروج شوذب الخارجي(٢٨)

في سنة مائة للهجرة خرجت حرورّية بالعراق على عمر بن عبد العزيز ، فكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب(٢٩) عامل العراق يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنّة نبيه . فلما أعذَر في دعائهم بعث إليهم عبدُ الحميد جيشاً فهزمتهم الحرورية فبلغ عمر ، فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك(٣٠) في جيش من أهل الشام جهّزهم من الرقّة ، وكتب إلى عبد الحميد : قد بلغني ما فعل جيشك جيشُ السوء ، وقد بعثتُ مسلمة بن عبد الملك ، فخلِّ بينه وبينهم ، فلقيهم مسلمة في أهل الشام ، فلم ينشب أن أظهره الله عليهم .

وذكر معمر بن المثنى أن الذي خرج على عبد الحميد بالعراق في خلافة عمر بن عبد العزيز هو شوذب الخارجي ، واسمه بسطام ، من بني يشكر ، وكان في ثمانين رجلاً ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة أن لا يحرّكهم حتى يسفكوا دماً ويُفسدوا في الأرض ، فإنّ فعلوا وجّه

(٢٧) الكامل في التاريخ ٥ : ٤٣ .

(٢٨) شوذب : هو بسطام اليشكري ، خرج في أيام عمر بن عبد العزيز بمكان قريب من الكوفة اسمه « جوخا » وكان أصحابه ثمانين رجلاً ، فتريّث عمر في قتالهم إلى أن مات ، وولي يزيد بن عبد الملك فأذن بقتالهم ، فحاربهم أهل الكوفة ، فلم يفلحوا وتبعهم شوذب وأصحابه إلى الكوفة ، ثم سيّر اليهم يزيد ثلاثة جيوش ، كل جيش في ألفين فانهزمت الجيوش . وعظم أمر شوذب وخاف الناس شرّه ، فجهز مسلمة بن عبد الملك جيشاً فيه عشرة آلاف مقاتل ، بقيادة سعيد بن عمر والحرشي ، فأحاطوا بشوذب ثم قتلوه . الأعلام ٢ : ٥١ .

(٢٩) عبد الحميد بن عبد الرحمن : توفي بحرّان نحو ١١٥هـ في خلافة هشام . الأعلام ٣ : ٢٨٧ .

(٣٠) مسلمة بن عبد الملك : يلقّب بالجرادة الصفراء . له فتوحات مشهورة . سار في مئة =

إليهم رجلاً صليباً حازماً في جند .

فبعث عبدُ الحميد محمد بن جرير بن عبد الله البَجَليّ في ألفي رجل وأمره بما كتب به عمر ، وكتب عمرُ إلى بسطام يسأله عن مخرجه ، فقدم كتابُ عمر عليه وقد قدم عليه محمّد بن جرير ، فقام بإزائه لا يتحرّك .

وكان في كتاب عمر : بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله ولستَ أولى بذلك منّي ، فهلمّ إليّ أناظرك ، فإن كان الحقّ بأيدينا دخلتَ فيما دخل الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرك .

فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفتَ وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . وأرسل إلى عمر مولىً لبني شيبان حبشيّاً اسمه عاصم ، ورجلاً من بني يشكر ، فقدما على عمر بخناصرة[٣١] فدخلا عليه ، فقال لهما : ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرّى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضىً من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم ؟

فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها ، وعهد إليّ رجل كان قبلي فقمتُ ولم ينكره عليّ أحدٌ ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس ، فاتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفتُ الحقّ ورغبتُ عنه فلا طاعة لي عليكم .

قالا : بيننا وبينك أمر واحد . قال : ما هو ؟ قالا : رأيناكَ خالفتَ أعمال أهل بيتك وسمّيتها مظالم ، فإن كنت على هُدىً وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ

= وعشرين ألفاً لغزو القسطنطينية في دولة أخيه « سليمان » . وغزا الترك والسند سنة ١٠٩هـ . ومات بالشام سنة ١٢٠هـ . تهذيب التهذيب ١٠ : ١٤٤ .

(٣١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب . معجم البلدان ٢ : ٢٩٠ .

منهم ، فقال عمر : قد علمتُ أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ، إن الله ، عز وجل ، لم يبعث رسوله (ص) لعّاناً ، وقال إبراهيم : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ (٣٢). وقال الله عز وجل : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٣٣). وقد سمّيتُ أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذمّاً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بدّ منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنتُهُ ، قال : أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرّهم ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلّون صائمون ! قال : أما هم كفّار بظلمهم ؟ قال : لا لأن رسول الله (ص) دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرّ به وبشرائعه قَبِل منه ، فإن أحدث حدثاً أُقيم عليه الحدّ .

فقال الخارجي : إن رسول الله (ص) دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : ليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنّة رسول الله ، ولكنّ القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنّه محرّم عليهم ، ولكن غلب عليهم السَّفاء (٣٤) .

قال عاصم : فابرأ مما خالف عملك وردّ أحكامهم . قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق ؟ قالا : بلى . قال : أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الرِّدّة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال ؟ قالا : بلى . قال : أتعلمان أن عمر ردّ السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية ؟ قالا : نعم . قال : فهل برىء عمر من أبي بكر ؟ قالا : لا . قال: أفتبرأون أنتم من واحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهروان(٣٥) وهم أسلافكم هل تعلمان أن

---

(٣٢) سورة إبراهيم ـ الآية ٣٦ .

(٣٣) سورة الأنعام ـ الآية ٩٠ .

(٣٤) السفاء : الجهل ورداءة الخلق .

(٣٥) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط ، وكان بها وقعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع الخوارج . معجم البلدان ٥ : ٣٢٥ .

أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً وأنّ من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خبّاب وجاريته وهي حامل ؟ قالا : نعم . قال : فهل برىء من لم يقتل ممّن قتل واستعرض ؟ قالا : لا . قال : أفتبرأون أنتم من أحد من الطائفتين ؟ قالا : لا . قال : أفيسعكم أن تتولّوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد ! فاتّقوا الله ! فإنكم جُهّال تقبلون من الناس ما ردّ عليهم رسول الله (ص) وتردّون عليهم ما قبل ، ويأمن عندكم مَن خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده ، فإنكم يخاف عندكم مَن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله ، وأنتم تقتلونه ، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرّمون دماءهم وأموالهم .

قال اليشكري : أرأيتَ رجلاً وليَ قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرّها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدّى الحقّ الذي يلزمه لله ، عز وجل ، أوتراه قد سلم ؟ قال : لا . قال : أفتسلّم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولّاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي ، قال : أفترى ذلك من صنع مَنْ ولّاه حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظراني ثلاثاً .

فخرجا من عنده ثم عادا إليه فقال عاصم : أشهد أنّك على حق ، فقال عمر لليشكري : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفتَ ولكني لا أفتأتُ على المسلمين بأمر ، أعرضُ عليهم ما قلتَ وأعلمُ ما حجّتهم .

فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر بن عبد العزيز يقول : أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه ، فأستغفر الله .

وخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال وأن يُخلع يزيد من ولاية

العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سمّاً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً حتى مرض ومات ، ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرّض إليهم ولا يتعرّضون له ، كلّ منهم ينتظر عود الرسل من عند عمر بن عبد العزيز ، فتوفي والأمر على ذلك .

٤ ـ القبض على يزيد بن المهلب(٣٦)

جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير : أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عديّ بن أرطاة يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلّب إليه موثقاً ، وكان عمر قد كتب إليه أن يستخلف على عمله ويُقبل إليه ، فاستخلف مخلّداً ابنه وقدم من خراسان ونزل واسطاً(٣٧)، ثم ركب السفن يريد البصرة ، فبعث عدي بن أرطاة موسى ابن الوَجيه الحميريّ ، فلحقه في نهر معقل(٣٨) عند الجسر ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز ، فدعا به عمر ، وكان يبغض يزيدَ وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أُحبّ مثلهم . وكان يزيدُ يبغض عمرَ ويقول : إنه مُراءٍ ، فلما وُلي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء . ولما دعا عمرُ يزيدَ سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان ، فقال : كنتُ من سليمان بالمكان الذي قد رأيتَ ، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأُسمع الناس به ، وقد علمتُ أنّ سليمان لم يكن ليأخذني به . فقال له : لا أجد في أمرك إلا حبسك ، فاتّق الله وأدِّ ما قِبَلك فإنها

---

(٣٦) يزيد بن المهلب : ولي خراسان بعد وفاة أبيه ، وعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج وكان الحجاج يخشى بأسه ، فلما تمّ عزله حبسه ، فهرب يزيد إلى الشام . ولما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ، ولاّه العراق ثم خراسان ، ثم نقل إلى إمارة البصرة فأقام فيها إلى أن استخلف عمر بن عبد العزيز ، فعزله ، وطلبه ، فجيء به إلى الشام فحبسه بحلب . ولما توفي عمر وثب غلمان يزيد ، فأخرجوه من السجن . وفيات الأعيان ٢ : ٢٦٤ وخزانة البغدادي ١ : ١٠٥ .

(٣٧) واسط : من أعمال العراق بين البصرة والكوفة . معجم البلدان ٥ : ٣٤٧ .

(٣٨) نهر معقل : نهر معروف بالبصرة . معجم البلدان ٥ : ٣٢٥ .

حقوق المسلمين ولا يسعني تركها .

وحبسه بحصن حلب ، وبعث الجرّاح بن عبد الله الحكميّ(٣٩) فسرحه إلى خراسان أميراً عليها ، وأقبل مخلّد بن يزيد من خراسان يعطي الناس ، ففرّق أموالاً عظيمة ، ثم قدم على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الله صنع لهذه الأمّة بولايتك وقد ابتُلينا بك ، فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك ، علامَ تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه فصالحْني على ما تسأل . فقال عمر : لا إلاّ أن يحمل الجميع . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بيّنة فخذْ بها وإلاّ فصدّقْ مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه . فقال عمر : ما آخذه إلا بجميع المال . فخرج مخلّد من عنده ، فقال عمر : هذا خير من أبيه ، ثم لم يلبث مخلّد إلا قليلاً حتى مات . فصلّى عليه عمر بن عبد العزيز ، وقال : اليوم مات فتى العرب وأنشد :

بكّوا حُذَيفةَ لم يبكّوا مثلَهُ   حتى تبيدَ خلائقٌ لم تخلق

فلما أبى يزيد أن يؤدّي إلى عمر شيئاً ألبسه جبّة صوف وحمله على جمل وقال : سيروا به إلى دهلك(٤٠). فلّما خرج ومرّوا به على الناس أخذ يقول : أما لي عشيرة ؟ إنما يذهب إلى دهلك الفاسق واللص ، فدخل سلامة بن نُعيم الخولاني على عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، أردد يزيد إلى محبسه فإني أخاف إن أمضيتَهُ أن ينتزعه قومُه ، فإنهم عصبوا له . فردّه إلى محبسه ، فبقي فيه حتى بلغه مرض عمر .

لما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز ، عمل يزيد على الهرب ، فقد خاف

---

(٣٩) الجراح بن عبد الله الحكمي : أمير خراسان ، مات غازياً بمرج أردبيل سنة ١١٢هـ .

(٤٠) دهلك : جزيرة في بحر اليمن ، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. معجم البلدان ٢ : ٤٩٢ .

يزيدَ بن عبد الملك لأنه كان قد عـذّب أصهاره آل أبي عقيل .

وكان سبب تعذيبهم أن سليمان بن عبد الملك لمّا وُلي الخلافة طلب آل أبي عقيل فأخذهم وسلّمهم إلى يزيد بن المهلّـب ليخلّص أموالهم ، فعذّبهم وبعث ابن المهلّب إلى البلقـاء من أعمال دمشق ، وبهـا خـزائن الحجّـاج بن يوسف وعياله ، فنقلهم وما معهم إليه ، وكان فيمن أُتي بـه أم الحجّاج زوجة يزيد بن عبد الملك ، وقيل : بل أخت لها ، فعذّبها ، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلّب في منزله فشفع فيها ، فلم يشفّعه ، فقال : الذي قرّرتم عليها أنا أحمله ، فلم يقبل منـه ، فقال لابن المهلّب : أمـا والله لئن وليتُ من الأمر شيئاً لأقطعنّ منك عضواً ! فقال ابن المهلّب : وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينّك بمائة ألف سيف [٤١] .

انتهت الأمور عند هذا القدر ، وحمل يزيد بن عبد الملك ما كان عليها ، وقد بلغ مائة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك .

واستمر الحقد الدفين ينتظر مُتنفّسـاً ؛ فكان مـرض عمر بن عبـد العزيـز وخوف ابن المهلّب من يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى مواليه ، فأعدّوا له إبلاً وخيلاً وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، فأرسل إلى عـامل حلب مـالاً وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال : إن أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجـاء ، وإن وليّ يزيـد يسفك دمي . فأخرجوه ، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيـه ، فركب الدوابّ وقصد البصرة ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه : إني والله لو وثقتُ بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنّي خفتُ أن يليَ يزيدُ فيقتلني شرّ قتلة .

ورد الكتـاب على عمر وبـه رمق فقال : اللهمّ إن كـان يـريـد بـالمسلمين سـوءاً

---

(٤١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٥٧ .

فألحقْهُ به وهضه فقد هاضني (٤٢) .

٥ ـ عزل الجراح عن خراسان(٤٣)

وكان سبب ذلك أن يزيد لما عُزل عن خراسان أرسل عامل العراق عاملاً على جرجان ، فأخذ جهم بن زحر الجُعفيّ (٤٤)، وكان على جرجان عاملاً ليزيد بن المهلّب ، فحبسه وقيّده وحبس رهطاً قدموا معه ، ثم خرج إلى الجرّاح بخراسان ، فأطلق أهل جرجان عاملهم ، وقال الجرّاح لجهم : لولا أنك ابن عمّي لم أسوّغك هذا . فقال جهم : ولولا أنك ابن عمّي لم آتِكَ .

وكان جهم سِلْف الجرّاح من قِبَل ابنتي الحُصين بن الحارث ، وأما كونه ابن عمّه فلأن الحكم والجُعفيّ ابنا سعد القُشيري .

فقال له الجرّاح : خالفتَ إمامك فاغزُ لعلّك تظفر فيصلح أمرك عنده فوجّهه إلى الخُتَّل(٤٥)، فغنم منهم ورجع ، وأوفد الجرّاحُ إلى عمر وفداً : رجلين من العرب ورجلاً من الموالي يكنّى أبا الصيد ، فتكلّم العربيّان والمولى ساكت ، فقال عمر : ما أنت من الوفد ؟ قال : بلى . قال : فما يمنعك من الكلام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من الذمّة يؤخذون بالخراج ، فأميرنا عصبيّ جافٍ يقوم على منبرنا فيقول: أتيتكم حفيّاً ، وأنا اليوم عصبيٌّ ، والله لرجلٌ من قومي أحبُّ إليّ من مائة من غيرهم . وهو بَعدُ سيف من سيوف الحجّاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . قال عمر : إذن بمثلك يوفد .

---

(٤٢) هاضني : احزنني .

(٤٣) الجراح : هو الجراح بن عبد الله الحكمي .

٤٤) جهم بن زحر الجعفي : والي جرجان ، خرج مع يزيد بن المهلب بالعراق ، وولي له أعمالاً . ولاما قتل يزيئد قبض على جهم في خراسان ، وطيف به على حمار ، ثم ضرب مئتي سوط وقتل سنة ١٠٢هـ ، الأعلام ٢ : ١٤١ .

(٤٥) الخُتّل : وهي على تخوم السند . معجم البلدان ٢ : ٣٤٦ .

فكتب عمر إلى الجرّاح : انظر من صلّى قِبَلك إلى القبلة فضعْ عنه الجزية ، فسارع الناسُ إلى الإسلام ، فقيل للجرّاح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان . فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر فكتب عمر إليه : إن الله بعث محمداً (ص) داعياً ولم يبعثه خاتناً ، وقال : إئتوني رجلاً صدوقاً أسأله عن أهل خراسان . فقيل له : عليك بأبي مِجلز ، فكتب إلى الجرّاح : أن أقبل واحمل أبا مِجلز وخلّف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نُعيم العامريّ . فخطب الجرّاح وقال : يا أهل خراسان جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ وعلى فرسي لم أُصب من مالكم إلاّ حلية سيفي . ولم يكن عنده إلا فرس وبغلة . فسار عنهم ، فلما قدم على عمر قال: متى خرجت ؟ قال: في شهر رمضان . قال : صدق من وصفكَ بالجفاء ، هلاّ أقمتَ حتى تفطر ثم تخرج !

وكان الجّراح كتب إلى عمر : إني قدمتُ خراسان فوجدتُ قوماً أبطرتهم الفتنةُ ، فأحبّ الأمور إليهم أن يعودوا ليمنعوا حقّ الله عليهم ، فليس يكفّهم إلا السيف والسوط ، فكرهتُ الإقدام على ذلك إلا بإذنك .

فكتب إليه عمر : يا ابن أم الجرّاح ، أنت أحرص على الفتنة منهم ، لا تضربنّ مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا بالحقّ ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى مَن يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً : ﴿ **لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾[٤٦] .

فلما قدم الجرّاح على عمر وقدم أبو مِجلز قال له عمر : أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله ، قال : يُكافيء الأكفاء ويعادي الأعداء ، وهو أمير يفعل ما يشاء ، ويقدم إن وجد من يساعده . قال : فعبد الرحمن بن نُعيم ؟ قال : يحبّ العافية والتأني وهو أحبّ إلي . فولاّه الصلاة والحرب ، وولّى

(٤٦) سورة الكهف ـ الاية ٤٩ .

عبد الرحمن القشيري الخراج ، وكتب إلى أهل خراسان : إني استعملتُ عبد الرحمن على حربكم ، وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم ، وكتب إليهما يأمرهما بالمعروف والإحسان .

فلم يزل عبد الرحمن بن نُعيم على خراسان حتى مات عمر ، وبعد ذلك حتى قُتل يزيد بن المهلّب (٤٧) .

وفي هذه السنة أيضاً أمر عمر بن عبد العزيز أهل طرندة(٤٨) بالقفول عنها إلى ملطية(٤٩) ، وطرندة واغلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل . وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين ، وملطية يومئذ خراب ، وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم ، فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر فأمرهم بالعودة إلى ملطية وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وخرّبها ، واستعمل على ملطية جعونة بن الحارث أحد بني عامر بن صعصعة .

وفي السنة نفسها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . وقد كانت سيرته بلغتهم ، فأسلم جيشبة بن ذاهر ، وتسمّى الملوك بأسماء العرب .

وكان عمر بن عبد العزيز قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم ، فغزا بعض الهند وحقّق الظفر ، وبقي ملوك السند على بلادهم أيام عمر ويزيد ابن عبد الملك ، فلما ولي هشام ارتدوا عن الإسلام (٥٠) .

---

(٤٧) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٥٢ .

(٤٨) طرندة : من بلاد الروم ، نقل عمر بن عبد العزيز أهلها إلى ملطية أشفاقاً عليها . معجم البلدان ٤ : ٣٢ .

(٤٩) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة وهي تتاخم الشام . معجم البلدان ٥ : ١٩٢ .

(٥٠) الكامل في التاريخ ٥ : ٥٤ و٥٥ .

توقيعات عمر

كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مَرَمَّة مدينته ، فوقّع أسفل كتابه : ابنها بالعدل ، ونقِّ طرقها من الظلم .

وإلى بعض عماله في مثل ذلك : حصِّنها ونفسك بتقوى الله .

وإلى رجل ولّاه الصدقات ، وكان دميماً فعدل وأحسن : ﴿ **ولا أقول للذين تزدري أعيُنكم لن يؤتيهم الله خيراً** ﴾ (٥١) .

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها ، فوقّع له : ارضَ لهم ما ترضى لنفسك ، وخذ بجرائمهم بعد ذلك .

وإلى عدي بن أرطاة في أمر عاتبه عليه : إن آخر آية أُنزلت ﴿ **واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله** ﴾ (٥٢) .

وإلى عامله على الكوفة ـ وكتب إليه أنه فعل في أمرٍ كما فعل عمر بن الخطاب : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ (٥٣) .

---

(٥١) سورة هود ـ الآية ٣١ .
(٥٢) سورة البقرة ـ الآية ٢٨١ .
(٥٣) سورة الأنعام ـ الآية ٩٠ .

وإلى الوليد بن عبد الملك ـ وعمر عامله على المدينة ـ فوقّع في كتابه : الله أعلم أنك لست أول خليفة تموت .

وأتاه كتاب عدي يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة ، فوقّع في كتابه : لا تطلب طاعة من خذل علياً ، وكان إماماً مرضياً .

وإلى عامله بالمدينة وسأله أن يعطيه موضعاً يبنيه ، فوقّع : كن من الموت على حذر .

وفي قصة متظلم : العدل أمامك .

وفي رقعة محبوس : تُبْ تُطْلَق .

وفي رقعة رجل قتل : كتاب الله بيني وبينك .

وفي رقعة متنصِّح : لو ذكرت الموت شغلك عن نصيحتك .

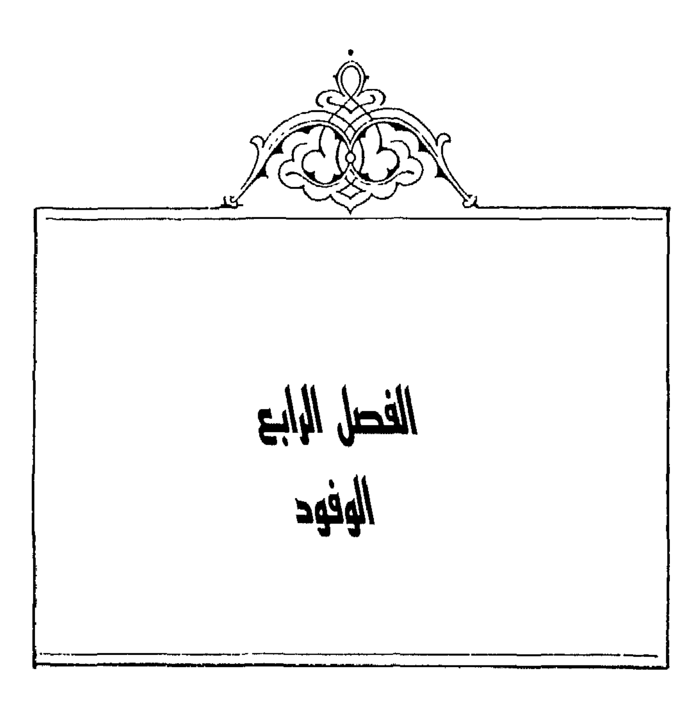
وفي رقعة رجل شكا أهل بيته : أنتما في الحقِّ سيّان .

وفي رقعة امرأة حُبس زوجها : الحقُّ حبسه .

وفي رقعة رجل تظلم من ابنه : إن لم أُنصفك منه فأنا ظلمتك(٥٤) .

---

(٥٤) العقد الفريد ٤ : ٢٥٩ و٢٦٠ .



الفصل الرابع
الوفود

* وفود أهل العراق .
* وفود أهل الحجاز .
* وفود دُكين الراجز .
* وفود كثير والأحوص ونصيب
* وفود الشعراء .
* وفد عبد الله بن عبد الأعلى إلى أليون



وفود عن أهل العراق

حدّث العتبي عن سُفيـان بن عُيينة قال : قدم على عمر بن عبد العزيـز ناسٌ من أهل العراق ، فنظر إلى شاب منهم يتحوّش للكـلام ، فقال : أكبـرُوا أكبروا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس بالسنّ ، ولو كان الأمـر كله بالسن لكـان في المسلمين من هو أسَنُّ منـك . فقال عمـر : صدقت رحمـك الله ، تكلّم : فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك رغبةً ولا رهبةً ؛ أمـا الرغبـة فقد دخلتْ علينا منازلنا وقدِمَت علينا بلادَنا ؛ وأما الرهبة فقـد أمَّنَنا الله بِعَـدلك من جورك . قال : فمـا أنتم ؟ قال : وفـدُ الشكر . قـال : فنظر محمـد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلبَنّ جهـلُ القوم بك معرفَتَك بنفسك ، فإن ناساً خدعهم الثناء وغرّهم شكرُ الناس فهلكوا ، وأنا أُعيذك بالله أن تكون منهم . فألقى عمر رأسه على صدره[1] .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ١٣ و١٤ .

وجاء في بعض الروايات أنه لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم عليه وفود أهل كل بلد ؛ فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فاشرأبَّ منهم غلام للكلام ، فقال عمر : يا غلام ، ليتكلم من هو أسنّ منك ! فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فـإذا منح الله عبـده لسانـاً لافظاً ، وقلبـاً حافـظاً فقد أجـاد له الاختيار ؛ ولو أن الأمور بالسنّ لكان ها هنا من هو أحقّ بمجلسك منك .

وفود جرير عن أهل الحجاز

قدم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، عن أهل الحجاز ، فاستأذنه في الشعر ، فقال : ما لي وللشعر يا جرير ؟ إني لفي شغل عنه !

قال : يا أمير المؤمنين ، إنها رسالة عن أهل الحجاز . قال : فهاتها إذاً . فقال :

كم من ضريرٍ أميرَ المؤمنينَ لدَى — أهلِ الحجازِ دهاهُ البؤسُ والضررُ
أصابت السَّنةُ الشَّهباءُ ما ملكتْ — يمينُهُ فحناهُ الجهدُ والكبَرُ[٢]
ومن قطيعِ الحشا عاشتْ مُخَبَّأةً — ما كانت الشمسُ تلقاها ولا القمرُ
لما اجتلَتْها صُروفُ الدهرِ كارهةً — قامت تنادي بأعلى الصوتِ : يا عمرُ !

فقال عمر : صدقت ، تكلم ؛ فهذا السحر الحلال ! فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة ، ولم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ؛ لأنا قد أمنّا في أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا !
فسأل عمر عن سنّ الغلام ، فقيل : عشر سنين .
وقد روي أن محمد بن كعب القرظي كان حاضراً ، فنظر وجه عمر قد تهلّل عند ثناء الغلام عليه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلبنَّ جهل القوم بك معرفتك بنفسك ؛ فإن قوماً خدعهم الثناءُ ، وغرّهم الشكر ، فزلّت أقدامُهم ، فهووا في النار . أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالف هذه الأمة ؛ فبكى عمر حتى خِيفَ عليه وقال : اللهم لا تُخلنا من واعظ ! زهر الآداب ١ : ٤٠ .
(٢) السنة الشهباء : المجدبة التي لا خضرة فيها ولا مطر .

وفود دكين الراجز(٣)

قال دُكين بن رجاء الفقيمي الراجز : مدحت عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة ، فأمر لي بخمسَ عشرة ناقة كرائم صعاباً ، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر عليّ ، ولم تطب نفسي ببيعها ، فقدمتْ علينا رفقة من مصر ، فسألتهم الصحبة ، فقالوا : إن خرجت الليلة . فقلت : إني أودّع الأمير ولا بدّ من وداعه . قالوا : فإن الأمير لا يُحجب عن طارق ليل . فاستأذنت عليه ، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما . فقال لي : يا دكين ، إن لي نفساً توّاقه ، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فَبعَيْنِ ما أرَيَنَّك . قلت له : أشهد لي بذلك أيها الأمير ، قال : إني أشهد الله . قُلت : ومن خلقه ! قال : هذين الشيخين . قلت لأحدهما : من أنت يرحمك الله أعرفك ؟ قال : سالم بن عبد الله . فقلت : لقد استسمنتُ الشاهد . وقلت للآخر : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو يحيى مولى الأمير . وكان مُزاحم يُكنى أبا يحيى .

قال دُكين : فخرجت بهنّ إلى بلدي ، فرمى الله في أذنابهنّ بالبركة ، حتى اتخذت منهنّ الضياع والرباع(٤) والغلمان . وإني لبصحراء فَلْج(٥) ، إذا بريد يركض إلى الشام ، فقلت له : هل من مُغَرِّبَةٍ خبر ؟ قال : مات سليمان بن عبد الملك ، قلت : فمن القائم بعده ؟ قال : عمر بن عبد العزيز . قال : فأنخت قلوصي وألقيت عليها أداتي(٦) وتوجّهت عنده ، فلقيت جريراً في

---

(٣) دكين : هو دكين بن رجاء الفقيمي ، راجز اشتهر في العصر الأموي ، متوفى سنة ١٠٥هـ . معجم الأدباء ١١ : ١١٣ .

(٤) الرباع : ما حول الدار ، المحلّة .

(٥) فلج : مدينة بأرض اليمامة . معجم البلدان ٤ : ٢٧١ .

(٦) الأداة : وجمعها الأدوات ، وهي كل ما يحتاجه المسافر .

الطريق آتياً من عنده ، فقلت : من أين يا أبا حزرة ؟ قال: من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، قلت : فما ترى فإني خرجت إليه ؟ قال : عَوِّل عليه في مال لبني السبيل كما فعلت . فانطلقت فوجدته قاعداً على كرسي في عَرْصة داره ، وقد أحاط الناس به ، فلم أجد إليه سبيلاً للوصول ، فناديت بأعلى صوتي :

يا عمرَ الخيراتِ والمكارمِ وعمرَ الدَّسائعِ العظائمِ [٧]
إني امرؤٌ من قَطَنِ بنِ دارمِ أطلبُ حاجي من أخي المكارمِ
إذ نتنجي والليلُ غيرُ نائمِ في ظلمَةِ الليلِ وليلي عاتمِ

عند أبي يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى ففرّج لي وقال : يا أمير المؤمنين ، إن لهذا البدوي عندي شهادة عليك ، قال : أعرفها ، ادنُ مني يا دكين ، أنا كما ذكرت لك إن لي نفساً توّاقه ، وإن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا ، فلما أدركتها وجدتها تتوق إلى الآخرة ؛ والله ما رزأتُ من أمور الناس شيئاً فأعطيك منه ، وما عندي إلا ألفا درهم ، أعطيك أحدهما . فأمر لي بألف درهم . فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظم بركةً منها[٨] .

---

(٧) الدسائع ، الواحدة دسيعة : وهي الجفنة الكبيرة .
(٨) العقد الفريد ١ : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

وفود كثير(٩) والأحوص(١٠) ونصيب(١١)

عن حماد الراوية قال : قال لي كثير عزة : ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر ؟ قلت : نعم . قال : شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكل واحد منّا يُدلُّ عليه بسابقة وإخاء قديم ، ونحن لا نشك أن سيشركنا في خلافته ، فلما رُفعت لنا أعلامُ خُناصرة ، لقينا مسلمة ابن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العربِ ، فسلَّمنا فردَّ ، ثم قال : أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما توضَّح إلينا خبر حتى انتهينا إليك .

ووجمنا وجمة عُرف ذلك فينا . فقال : إن يك ذو دِين بني مروان قد وَلِي وخشيتم حرمانه ، فإن ذا دُنيانا قد بقي ، ولكم عندي ما تحبون ، وما ألبثُ حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهلُه .

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزول عليه ؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره ، فلا يُؤذن لنا ؛ إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع لو أني دنوت من عمر فسمعتُ كلامه فحفظته ، وكان ذلك رأياً . ففعلتُ ، فكان مما حفظت من كلامه : « لكل سفر زاد لا محالة ، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه

---

(٩) كثير : هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي ، المشهور بكثير عزّة ، شاعر متيم مشهور ، توفي بالمدينة سنة ١٠٥هـ . خزانة البغدادي ٢ : ٣٨١ - ٣٨٣ والأغاني ٨ : ٢٥ .

(١٠) الأحوص : هو عبد الله بن محمد بن عاصم الأنصاري ، شاعر هجاء ، كان معاصراً لجرير والفرزدق ، توفي بدمشق سنة ١٠٥هـ . الأعلام ٤ : ١١٦ والأغاني ٤ : ٤٠ - ٥٨ .

(١١) نصيب : هو نصيب بن رباح ، مولى عبد العزيز بن مروان ، وهو شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح . متوفى سنة ١٠٨هـ . الأعلام ٨ : ٣٢ .

أو عقابه ، فترغبوا وترهبوا ، ولا يطولنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم ؛ ثم قال : « أعوذ بالله أن آمركم بما أنهي عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتظهر عيلتي ، وتبدو مسكنتي ، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق » !

ثم بكى حتى ظننتُ أنه قاضٍ نحبه ، وارتجّ المسجد وما حوله بالبكاء ، وانصرفتُ إلى صاحبيّ فقلت لهما : خُذا في شَرْج [١٢] من الشِّعر غير ما كنا نقول لِعُمر وآبائه ؛ فإن الرجل آخريٌّ وليس بدنيوي .

وطال بنا الانتظار إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة بعدما أُذِن للعامة فلما دخلت سلّمتُ ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، طال الثَّواء وقلّت الفائدة ، وتحدّث بجفائك وفود العرب . قال : يا كثير : ﴿ **إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهُم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل** ﴾[١٣] أفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى ، ابن سبيل منقطع به ، وأنا صاحبك قال : ألستَ صاحب أبي سعيد ؟ قلت: بلى ، قال : ما أرى ضيف أبي سعيد منقطع به . قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في الإنشاد ؟ قال : نعم ، ولا تقل إلا حقّاً فقلت :

وليتَ فلم تَشْتُم عليّاً ولم تُخِفْ ... بَرِيّاً ولم تَقبَل إشارةَ مُجرِمِ
وصَدَّقتَ بالفعلِ المَقال مع الذي ... أتيتَ فأمسى راضِياً كلُّ مُسْلِمِ
ألا إنما يَكفي الفتى بعد زَيغِه ... من الأوَدِ الباقي ثِقافُ المُقَوِّمِ[١٤]
وقد لبِسَتْ لُبْسَ الهَلوك ثيابَها ... تَراءى لك الدنيا بكَفٍّ ومِعْصمِ[١٥]

---

(١٢) الشرج : النوع .
(١٣) سورة التوبة ـ الآية ٦ .
(١٤) الأود : الكد والتعب . الثقاف : آلة تثقف بها الرماح .
(١٥) الهلوك : البغي .

وتُـومِضُ أحيـانـاً بعيْنٍ مـريضـةٍ   وتَبسمُ عن مثْلِ الجُمَانِ المنـظَّمِ
فـأعـرَضتَ عنهـا مُشمَئزاً كـأنمـا   سَقتك مَدُوفاً من سِمَامٍ وعَلْقَمِ (١٦)
وقـد كُنتَ من أجبـالهـا في مُمنـع   ومن بَحرِها في مُـزْبِدِ المـوج مُفْعَمِ
ومـا زِلْتَ تـوَّاقـاً إلى كـلّ غـايـة   بَلَغْتَ بهـا أعْلى البنـاءِ الـمُقـوَّمِ
فلمـا أتـاك المُلْكُ عفـواً ولم يكن   لـطالـبِ دُنيـا بَعْـدَهُ من تـقـدُّمِ
تَـركْتَ الذي يَفنى وإن كـان مُـونقـاً   وآثَـرْتَ مـا يَبقـى بـرأي مُصمِّم
وأَضْـررْتَ بـالفـاني وشَمَّـرْتَ للذي   أمـامَـك في يـومٍ من الشـرِّ مُظْلمِ
ومـالـك إذ كنتَ الخليفـةَ مـانـعٌ   سـوى اللهِ مِن مـالٍ رَغيبٍ ولا دمِ
سَمـا لـك هَمٌّ فـي الفـؤادِ مُـؤرِّقٌ   بَلَغْتَ بـه أعـلى المعـالي بسُلَّمِ
فما بين شرقِ الأرضِ والغربِ كُلِّها   مُنـادٍ يُنـادي من فصيـح وأعْجَمِ
يـقـول أميـرَ الـمؤمـنيـنَ ظَلَمْـتَني   بـأخـذٍ لـدينـارٍ ولا أخـذِ درهمِ
ولا بَسْطَ كَفٍّ لأمـرِيء غيْـرِ مُجـرِمٍ   ولا السَّفْكِ منه ظالِماً ملءَ مِحْجمِ (١٧)
ولـو يَستـطيـعُ المسلمـون لقسَّمـوا   لـك الشَّطْرَ من أعمـارِهِمْ غيْرَ نُـدَّمِ
فـأربِحْ بهـا مِن صَفْقَةٍ لِمُبـايـعٍ   وأَعْظِمْ بها أعظِم بها ثم أعـظِمِ (١٨)

قال : ثم أقبل عليّ وقال : إنك مسؤول عما قلت .

ثم تقدّم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقاً .

فقال :

ومـا الشِّعـرُ إلا حـكـمـةٌ من مُؤلِّفٍ   بمنـطِقِ حَق أو بمنـطِقِ بـاطـلِ
فـلا تقبلَنْ إلا الـذي وافقَ الـرِّضـا   ولا تـرجعنَّـا كـالنِّسـاء الأرامـلِ
رأينـاكَ لم تَعـدِلْ عن الحقّ يَمنَـةً   ولا شَـأْمَةً فعـلَ الـظَّلومِ المخـاتِـلِ

---

(١٦) المدوف : المزيج ، الخليط .

(١٧) المحجم : شيء كالكأس يفرغ من الهواء ويوضع على الجلد فيحدث تهيّجاً ويجذب الدم بقوة .

(١٨) العقد الفريد١ : ٢٨٢ و٢٨٣ .

ولكن أخَذْتَ الحقَّ جُهْدَك كلَّه   تَقُدُّ مثال الصالحين الأوائلِ
فقلنا ولم نُكْذَبْ بما قد بدا لنا   ومَن ذا يَرُدُّ الحقَّ مِن قول قائلِ
ومَن ذا يَرُدُّ السَّهْمَ بعدَ مَضائِه   على فُوقه إذ عارَ مِن نَزْعِ نابلِ [19]
ولولا الذي قد عَوَّدَتنا خلائِفُ   غَطاريفُ كانوا كاللُّيوثِ البواسلِ
لَما وخَدَتْ شَهْراً برحلي شِمِلَّةٌ   تَقُدُّ مِتان البيدِ بين الرَّواحِلِ [20]
ولكن رَجَونْا منك مثل الذي به   حُبينا زَماناً من ذَويك الأوائلِ
فإن لم يكن للشِّعْر عندَك موضعٌ   وإن كان مثل الدُّرِّ في نَظْمِ قائلِ
وكان مُصيباً صادقاً لا يعيبُه   سوى أنه يُبنَى بِناءَ المنازِل
فإن لنا قُرْبى ومَحْضَ مَودَّة   وميراثَ آباءٍ مشَوْا بالمَناصِلِ
فذَادُوا عدوّ السلْمِ عن عُقر دارِهم   وأرْسَوْا عمودَ الدينِ بعدَ التَّمايُلِ
وقبلَكَ ما أعطى الهنيدة جِلَّةً   على الشعرِ كَعْباً مِن سدِيس وبازِلِ [21]
رسولُ الإلهِ المُسْتضاءُ بنورِه   عليه سَلامٌ بالضُّحى والأصائلِ [22]

فقال : إنك مسؤول عما قلت .

ثم تقدّم نصيب فاستأذنه في الأنشاد ؛ فلم يأذن له ، وأمره بالغزو إلى دابق[23] . فخرج إليها وهو محموم . وأمر لي بثلاثمائة ، وللأحوص بمثلها ، ولنصيب بمائة وخمسين .

---

(١٩) الفوق : مشقّ رأس السهم حيث يقع الوتر .
(٢٠) الوخد : ضرب من سير الإبل . والشملة : السريعة من النوق .
(٢١) الهنيدة : اسم للمائة من الإبل . ويقال « سديس » للناقة إذا كانت في السنة الثامنة ، والبازل فوق السديس .
(٢٢) العقد الفريد ١ : ٢٨٣ .
(٢٣) دابق : قرية قرب حلب ، معجم البلدان ٢ : ٤١٦ .

وفود الشعراء

كانت بلاطات الخلفاء والولاة والقادة تعجّ بالشعراء والأدباء وأهل القول طمعاً بالعطاء والنوال ، وكثيراً ما أدى ذلك إلى التحاسد والتباغض . . .

فلما استُخلف عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله ؛ فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول ، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[٢٤] على عمر ، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها ، وكانت له منه مكانة ، فقال جرير :

يا أيها الرَّجُلُ المُرْخي عمامته[٢٥] ... هذا زمانُكَ إني قد مَضى زَمَني
أَبْلِغ خَليفتَنا إن كنتَ لاقِيَهُ ... إني لَدى الباب كالمْصفودِ في قَرَنِ
وحْش المَكانةِ من أهلي ومن ولَدي ... نائي المحَلّةِ عن داري وعن وطني[٢٦]

قال : نعم أبا حرزة ونُعمى عين .

فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين ، إن الشعراء ببابك ؛ وأقوالهم باقية ؛ وسنانهم مسنونة . قال : يا عون ، ما لي وللشعراء ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن النبي (ص) قد مُدح وأعطى ، وفيه أُسوة لكل مُسلم . قال : ومن مدحه ؟ قال : عباس بن مرداس[٢٧] ؛ فكساه حُلّة قطع بها لسانه . قال : وتروي قوله يا عون ؟ قال : نعم ، وأنشد :

رأيتُك ياخير البَريَّةِ كلِّها ... نَشَرْتَ كتاباً جاء بالحقِّ مُعْلِما

---

(٢٤) وفي بعض الأصول : « عدي بن أرطاة » .

(٢٥) وفي بعض الأصول : « المزجي مطيته » .

(٢٦) العقد الفريد ١ : ٢٨٤ وانظر شرح ديوان جرير ص٤٤٦ .

(٢٧) العباس بن مرداس : شاعر من سادات قومه ، أدرك الجاهلية والإسلام . وكان ممن ذمّ

وَنَوَّرْت بالبرهانِ أمراً مُدَمَّساً		وأطفأتَ بالبرهانِ ناراً مُضَرَّما
فَمنْ مُبلغٌ عني النبيَّ مُحمداً		كل امرئٍ يُجزى بما قد تَكلما
تعالىَ عُلوّاً فوقَ عَرشٍ إلٰهُنا		وكان مكانُ الله أعلى وأعظما

قال : صدقت ؛ فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبي ربيعة . قال : لا قرَّب الله قرابته ، ولا حيّا وجهه ! أليس هو القائل : [٢٨]

ألا ليت أنِّي يومَ حانتْ منيَّتي		شَممْتُ الذي ما بين عينيكِ والفَمِ
وليت طَهوري كان رِيقكِ كلَّه		وليت حَنوطي من مُشَاشِكِ والدمِ
وياليت سَلْمى في القبورِ ضَجيعتي		هنالِكَ أو في جنةٍ أو جهنمِ [٢٩]

فليته والله تمنى لقاءها في الدنيا ، ويعمل عملاً صالحاً . والله لا دخل عليّ أبداً . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : جميل بن معمر العذري . قال : هو الذي يقول :

ألا لَيْتنا نَحيا جميعاً وإنْ نَمُتْ		يُوافِي لدى المَوْتَى ضريحي ضريحُها
فما أنا في طولِ الحياةِ بِراغِبٍ		إذا قيل قد سُوِّي عليها صفيحها
أظلُّ نَهارِي لا أراها ويَلْتَقي		مع الليلِ رُوحي في المنامِ ورُوحُها [٣٠]

أعزُب به ؛ فوالله لا دخل عليّ أبداً . فمن غير من ذكرت ؟ قال : كثير عزة . قال : أليس هو القائل :

رُهبانُ مَدْيَنَ والذين عَهِدتُهم		يبكون من حَذَرِ العذابِ قعودا [٣١]

الخمر وحرّمها في الجاهلية . مات في خلافة عمر بن الخطاب نحو ١٨هـ . طبقات ابن سعد ٤ : ١٥ .

(٢٨) العقد الفريد ١ : ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢٩) العقد الفريد ١ : ٢٨٥ .

(٣٠) المصدر السابق ١ : ٢٨٥ .

(٣١) مدين : مدينة بين وادي القرى والشام . معجم البلدان ٥ : ٧٧ .

لـو يسمعـونَ كمـا سمعتُ حـديثَهـا ... خـرُّوا لِعَـزَّةَ راكـعـيـنَ سُـجُـودا

أعزُب به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأحوص الأنـصـاري . قال : أبعدهُ الله ومحقه ، أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريةً هرب بها منه :

اللهُ بـيـنـي وبـيـن سـيِّـدهـا ... يَـفِـرُّ عـنـي بـهـا وأتَّـبـعُ[٣٢]

أعزُب به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق ، قال أليس هو القائل يفخر بالزنا :

هُمـا دَلَّتـاني من ثمـانيـن قـامـةً ... كما انْقَضَّ بازٍ أقْتمُ الرِّيش كاسِرُهْ[٣٣]
فلما استوتْ رِجلايَ في الأرضِ قالتا ... أحَـيٌّ يُـرَجَّى أم قـتيـلٌ نُـحَـاذِرُهْ
وأصبحْتُ في القوم الجلوسِ وأصبحتْ ... مُغَلَّقَـةً دوني عليهـا دَسـاكـرُهْ[٣٤]
فقلتُ ارفعوا الأسبابَ لا يشعـروا بنا ... ووَلَّيتُ في أعقـابِ ليـلٍ أُبـادره[٣٥]

أعزُب به . فوالله لا دخل عليّ أبداً ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأخطل التغلبي قال : أليس هو القائل :

فلستُ بصـائمٍ رمـضـانَ عُمـري ... ولـستُ بـآكِـلٍ لـحمَ الأضـاحـي
ولـست بـزاجِـرٍ عَـنسـاً بُـكـوراً ... إلـى بَـطْـحـاءِ مـكـة لـلـنَّجـاحِ
ولستُ بقـائمٍ كـالـعَيْـرِ يـدعـو ... قُبَيْـلَ الصبـحِ حيّ على الفـلاحِ
ولـكـنـي سـأشْـربُـهـا شَـمـولاً ... وأسجـدُ عنـد مُنبلَجِ الصبـاحِ

---

(٣٢) العقد الفريد ١ : ٢٨٥ .
(٣٣) الأقتم : الضارب إلى السواد .
(٣٤) الدساكر : القباب .
(٣٥) انظر ديوان الفرزدق ص١٨٩ .

أعزُب به ، فوالله لا وطىء لي بساطاً أبداً وهو كافر ؛ فمن بالباب غير من ذكرت ؟

قلت : جرير الخطفي . قال : أليس هو القائل :

لـولا مُـراقبـةُ العيـون أرَيْنَنـا ... مُـقَـلَ الـمَـهَـا وسَـوالـفَ الآرامِ
هـل يَنهَيَنَّـكَ أنْ قَتَلْنَ مُـرقَّشـاً (٣٦) ... أوْ مـا فَعَلنَ بِعُـرْوَةَ بنِ خـزامِ (٣٧)
ذُمَّ المَنـازِلَ بَعـدَ منـزِلـةِ الـلِّوَى ... والـعيشَ بَـعـدَ أُولئِـكَ الأقـوامِ
طـرَقَتْـك صـائـدةُ القلوبِ وليس ذا ... حين الـزِّيـارةِ فـارجِعِي بسَـلامِ (٣٨)

فإن كان ولا بدّ فهذا فأذِن له ؛ فخرجت إليه فقلت : ادخل أبا حـزرة . فدخل وهو يقول :

إن الـذي بـعـث الـنـبـيّ مـحـمـداً ... جعـل الخـلافـة في إمـام عـادلِ
وَسِـعِ الـخـلائقَ عَـدْلُـهُ ووفـاؤهُ ... حتى آرْعَـوى وأقـام ميـلَ المـائِـل
والله أُنـزل في القـرانِ فـريضـة ... لابنِ السبيـل وللفقيـر العـائلي (٣٩)
أني لأرجـو منـكَ خيـراً عـاجِـلاً ... والنَّفْسُ مـولعَـةٌ بحبِّ العـاجِـلِ

فلما مثل بين يديه قال : اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً . فأنشأ يقول :

كم بـاليمـامـةِ من شعثـاءَ أرمَـلةٍ ... ومن يتيم ضعيفِ الصـوتِ والنـظرِ
مـمن يَـعُـدُّكَ تكـفي فَـقْـدَ والِـدِه ... كالفَرْخِ في العشِّ لم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ

(٣٦ ـ مرقش : هو المرقش الأكبر ، عوف بن سعد بن مالك ، شاعر جاهلي من المتيمين الشجعان ، مات نحو ٧٥هـ الأعلام ٥ : ٩٥ .

(٢٧) عروة بن حزام : شاعر من بني عذرة ومن متيمي العرب ، مات في وادي القرى قرب المدينة نحو ٣٠هـ فوات الوفيات ٢ : ٣٣ .

(٣٨) القصيدة قيلت في هجاء الفرزدق ومطلعها :

سـرت الـهـمـوم فـبـتـنـا غـيـر نـيـام ... وأخـو الـهـمـوم يـروم كـلَّ مـرام

(٣٩) وفي الديوان « في الكتاب » مكان « في القران » .

يـدعـوك دعــوةَ ملهـوفٍ كـأنّ بـه | خَبْلاً من الجنّ أو مَسّاً من النَّشَرِ[٤٠]
خـليفَــةَ الله مــاذا تـأمُـرَنّ بِـنَــا | لَسنـا إليكُم ولا في دارِ مُنْتَـظَـرِ[٤١]
مــا زِلْتُ بعْـدَكَ فـي هم يُـؤَرِّقُنـي | قد طالَ في الحيِّ إصْعادي ومُنْحَدَري
لا ينْفَـعُ الحـاضِـرُ المجهُـودُ بـادِينـا | ولا يـعُـودُ لنـا بـادٍ عـلى حـضَـرِ
إنّـا لـنـرجُـو إذا مـا الغيثُ أخْلَفنـا | مِنْ الخليفَـةِ مـا نَـرْجُـو مِنَ المـطَرِ
نـال الخِـلافَـةَ إذ كـانتْ لـه قَـدَراً | كمـا أتى ربَّـهُ مـوسى على قـدَرِ[٤٢]
هـذِي الأرامِلُ قـد قضَّيْتَ حـاجَتَهـا | فمن لِحـاجَـةِ هـذا الأرْمَلِ الـذَّكَـرِ

فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، ونـادى : يا غـلام ، أعطه المـائة الباقية .

فقـال : والله يا أمير المؤمنين ، إنها لأحبّ مال إليّ كسبته . ثم خـرج ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : ما يسوؤكم ! خرجت من عند أمير يعـطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراضٍ . ثم أنشأ يقول :

رأيـتُ رُقى الـشيــطان لا تـستـفـزُّه | وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا[٤٣]

---

(٤٠) القصيدة في مدح عمر ومطلعها :
لجّت أمـامـة في لـومي ومـا علمت | عـرض السمـاوة روحـاتي ولا بُكـري
(٤١) لسنا إليكم : أي لسنا عندكم فنعيش في ظلكم ، ولا نحن في دار إقامة .
(٤٢) وفي بعض الأصول : أتى الخلافة أو . . . » .
(٤٣) وكان العرب يعتقدون أن للشعراء شيـاطين تنطق بـالشعر على ألسنتهم ، ومن هـذه الشيـاطين : هاذر صـاحب النابغـة الذبيـاني ، ولافظ صاحب امـرىء القيس ، وهبيد صاحب عبيد بن الأبرص إلخ . . . انظر جمهرة أشعار العرب ص٥٩ و٦٠ .

وفد عبد الله بن عبد الأعلى إلى اليون

ويروى أن عمر بن عبد العزيز وجّه عبد الله بن عبد الأعلى ومعه رجلٌ من عنْسٍ إلى اليُون .

قال العنسي : فخلا بي عمر دونه وقال لي : احفظ كلَّ ما يكون منه .

فلما صرنا إليه صرنا إلى رجل عربي اللسان إنما نشأ بمرعَش ، فذهب عبد الله ليتكلم فقلت : على رسلك . فحمدت الله وصلّيت على نبيه (ص) ثم قلت : إني وُجِّهتُ بالذي وُجِّه به هذا ، وإن أمير المؤمنين يدعوك إلى الإسلام ، فإن تقبله تُصِبْ رشدك ، وإني لأحسب أن الكتاب قد سبق عليك بالشقاء ، إلا أن يشاء الله غير ذلك . فإن قبلتَ وإلا فاكتب جواب كتابنا .

ثم تكلم عبد الله ، فحمد الله وصلى على نبيه (ص) وذهب في القول ، . وكان مفوّهاً فقال له اليون : يا عبد الله ، ما تقول في المسيح ؟

قال :روح الله وكلمته .

فقال اليُون : أيكون ولد من غير فحل ؟

فقال عبد الله : في هذا نظر .

فقال : أيّ نظرٍ في هذا ؟ إما نعم وإما لا .

فقال عبد الله : آدم خلقه الله من تراب .

فقال : إن هذا أُخرج من رحم .

قال : في هذا نظر .

فقال له اليُون بالرومية : إني أعلم أنك لستَ على ديني ولا على دين الذي أرسلك . ثم قال : أتعظّمون يوماً غير يوم الجمعة ؟

فقال : نعم .

قال اليُون : وما ذلك اليوم ؟ أمن أعيادكم هو ؟

قال عبد الله : لا .

قال : فلم تعظّمونه ؟

قال عبد الله : عيد لقوم كانوا صالحين قبل أن يصير إليكم .

فقال له اليُون بالرومية : قد علمت أنك لست على ديني ولا على دين الذي أرسلك .

فقال له عبد الله : أتدري ما يقول أهل السفه ؟

قال : وما يقولون ؟

قال : يقولون قال إبليس : أُمرت ألا أسجد إلا لله ، ثم قيل لي اسجُد لآدم .

فقال له بالرومية : الأمر فيك أبين من ذلك .

قال عبد الله : ثم كتب جواب كتبنا ، فرجعنا إلى عمر بها . فخبرّناه بما أردنا ، ثم نهضنا ، فردّني إليه من باب الدار فخلابي فأخبرته . فقال : لعنه الله ، لقد كانت نفسي تأباه ولم أحسبه يجترىء على مثل هذا .

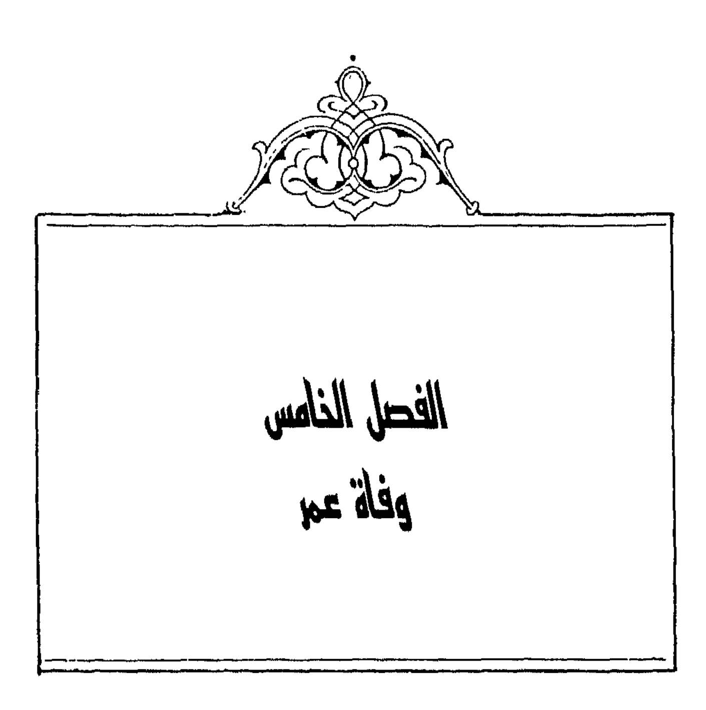
قال : فلما خرجت قال لي عبد الله : ما الذي قال لك ؟

قلت : قال لي : أنطمعُ فيه ؟ قلت : لا[٤٤] .

---

(٤٤) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٣٠٦ ، ٣٠٧ .





الفصل الخامس
وفاة عمر

* ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .
* والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .
* ليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربّه على أمل .
* اعلموا إنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافذاً بباقٍ ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان . . .
* اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران ، لك في أحدهما رضا ، ولي في الآخر هوى ، إلا آثرت رضاك على هواي ، فاغفر لي !



توفي عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة[١] ، وقيل إن يزيد بن عبد الملك سمّه ، إذ دسّ السمّ إلى خادم كان يخدمه ، فوضع الخادم السّم على ظفر إبهامه ، فلما استسقى عمر غمس إبهامه في الماء ثم سقاه ؛ فمرض مرضه الذي مات فيه[٢] ، وكانت شكواه عشرين يوماً .

ولما مرض قيل له : لو تداويت . فقال : لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها ، نعم المذهوب إليه ربي[٣] .

وكان موته بدير سمعان ، وقيل : بخناصرة ، ودُفن بدير سمعان . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة وأشهراً ، وقيل : كان عمره أربعين سنة وأشهراً . وكانت كنيته أبا حفص ، وكان يقال له أشجّ بني أمية ، وذلك أن دابة رمحته فشجّته وهو غلام ، فدخل على أمه فضمّته إليها وعذلت أباه ولامته حيث لم يجعل معه حاضناً ، فقال لها عبد العزيز : اسكتي يا أم عاصم ، فطوباك إن كان أشجّ بني أمية[٤] .

(١) الكامل في التاريخ ٥ : ٥٨ .
(٢) العقد الفريد ٥ : ١٧٤ .
(٣) الكامل في التاريخ ٥ : ٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ٥ : ٥٩ .

قال ميمون بن مهران : قال عمر بن عبد العزيز : لما وضعت الوليد في حفرته نظرت فإذا وجهه قد اسودّ ، فإذا متُّ ودفنت فاكشف عن وجهي ؛ ففعلتُ فرأيته أحسن مما كان أيام تنعّمه(٥) .

وقيل إن مسلمة بن عبد الملك دخل عليه أثناء مرضه فوقف عند رأسه وقال : جزاك الله يا أمير المؤمنين عنّا خيراً ؛ فلقد عطفت علينا قلوباً كانت عنّا نافرة ، وجعلت لنا في الصالحين ذكراً(٦) .

وحدّث زياد عن مالك قال : دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بدّ لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله . فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالفقر تخوّفني يا مسلمة ؟ أما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإني لم أمنعهم حقّاً هو لهم ، ولم أعطهم حقّاً هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ؛ وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيّر وفجر فلا يكون عمرُ أول من أعانه على ارتكابه(٧) .

ثم قال : ادعوا لي بنيّ ، فدعوهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعّد بصره فيهم ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بني ، إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرُّون

---

(٥) المصدر نفسه ٥ : ٥٩ .
(٦) العقد الفريد ٥ : ١٧٤ .
(٧) العقد الفريد ٥ : ١٧٤ و١٧٥ .

على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله .

يا بنيّ ، ميَّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ؛ قوموا يا بنيَّ عصمكم الله ورزقكم(٨) !

قال الخليفة المنصور لعبد الرحمن بن أبي بكر : عِظني ، قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال المنصور : بما رأيت ، فقال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً ، كُفّن بخمسة واشتُري له موضع قبره بدينارين ، وقسم الباقي على ولده ، فأصاب كل ذكر منهم تسعة عشر درهماً .

ومات هشام بن عبد الملك ، فقسمت تركته على أولاده ، فأصاب كل واحد منهم ألف ألف ، ورأيت رجلاً من ولد عمر قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدّق عليه الناس(٩) .

وروي أن عمر بن عبد العزيز كان يخاف الموت مذ كان صبياً صغيراً ، وقد لازمه ذلك في كبره ، وهو الذي جمع القرآن في صدره ، واتّعظ بسوره وآياته ، والقرآن يشفي كل صدرٍ من حزنه وغمّه .

قيل إنه بكى يوماً ، فأرسلت إليه أمه تسأله عن سبب بكائه ، فأرسل يقول : قد ذكرتُ المَوت ! فلما جاءها الرسول بردّه بكت هي أشدّ مما بكى ابنُها ، بكت لأنها ذكرت الموت ، وبكت لأن ابنها يفكر وهو صغير في زحفة الزوال(١٠) .

---

(٨) المصدر نفسه ٥ : ١٧٥ .
(٩) ابن الجوزي ص٢٤٢ .
(١٠) ابن الجوزي ص٩ .

وقـال يـزيـد بن حَـوْشب : مـا رأيت أخـوف من الحسن[١١] وعمـر بن عبد العزيز للموت ، كأن النار لم تخلق إلا لهما[١٢] .

ولم يكن شيء يغير من لون عمر ويهدّ من قوته ويكسر من عنفوانه أكثر من رؤيته القبور ومروره عليها .

وقد حدّث ميمون بن مهران أنه خرج معه إلى المقبرة ، فلمـا نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل على ميمون فقال له : يا أبا أيوب ، هذه قبور آبائي من بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ! أما تراهم صرعى قـد حلّت بهم الويـلات واستحكم فيهم البلى ، وأصـابت الهوامّ في أبـدانهم مقيلاً ! ثم بكى وأطال ، فلما أفاق قـال لميمون : انـطلق بنا ، فـوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله[١٣] .

ودخـل الـرقـاشي يـومـاً على عمـر فقـال لـه : عـظني ، فقـال : يـا أمير المؤمنين ، أنت أول خليفة يموت ! قال: زدني. قـال: ليس بين الجنة والنار منزلة !

وكان عمر يتمثل بقـول القائـل :

من كـان حين تمسّ الشمس جبهتـه ... أو الغبـار يخـاف الشيْن والشعـثـا
ويـألف الـظلّ كي تبقى بشـاشتـه ... فسوف يسكن يومـاً راغماً جـدثا[١٤]

ومما قالـه في خطبـة له : أيهـا الناس ، إنمـا الدنيـا أجل مختـرم وأمل منتقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله

(١١) الحسن : هو الحسن البصري ، وقد ذكرنا ترجمته .
(١٢) ابن الجوزي ص١٨٣ و١٩١ .
(١٣) الخليفة الزاهد ص٢٢٨ .
(١٤) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٣٧٥ .

امرءاً فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربّه واستقال ذنبه ونوّر قلبه .

أيها الناس ، قد علمتم أن أباكم قد خرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربّه على أمل[١٥] .

رحم الله عمر ، لقد أعدّ العدّة ، وأوفر الزاد للقاء ربّه ، فلما سئلت زوجته فاطمة بنت عبد الملك عن عبادته قالت : والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياماً ، ولكن والله ما رأيت أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدّة الخوف حتى نقول : ليصبحنّ الناس ولا خليفة لهم[١٦] .

ومن غريب الأمور أن تتوق نفس الفتى إلى الموت ، وهو الذي أعطي المال والشباب ، وورث المجد والمعالي ؛ وقد أقرّ هو على ذلك التوق حين قال : إن لي نفساً ذوّاقة توّاقة ، كلما ذاقت شيئاً تاقت إلى ما فوقه ، ولقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم تاقت نفسي الى العلم بالعربية فالشعر فأصبت منه حاجتي ، وتاقت إلى الإمارة فوليتها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها ، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها تاقت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة[١٧] .

الخوف من الموت والتوق إلى رحمة الله أمران اجتمعا في نفس عمر . فمنذ بدأته العلة في خناصرة وأيقن بالموت نهض يخطب بها ويقول : اعلموا إنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافذاً بباقٍ ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان[١٨] . . . .

(١٥) المصدر نفسه ٢ : ٣١٧ .
(١٦) ابن عبد الحكم ص٤٧ .
(١٧) شذرات الذهب ١ : ١٢٠ وابن الجوزي ص٦٦ .
(١٨) تاريخ الطبري ٥ : ٣٢٣ .

وكان عمر في أخريات أيامه بعث إلى عبد الله بن أبي زكريا[١٩] فقال له : يابن أبي زكريا ، هل تدري لم بعثتُ إليك ؟ قال : لا . فقال : لأمرٍ لست ذاكره لك حتى تحلف لي . قال : لا تسألني شيئاً إلا فعلته ! فقال عمر : فاحلف لي ، فلما حلف له قال : ادعُ الله أن يميتني !

قال الرجل : بئس الوافد أنا للمسلمين ! وأنا إذن عدو لأمة محمد ! فقال عمر: هاه ! قد حلفت لي ، فلم يجد الرجل الصالح بداً من الوفاء ، فدعا لعمر بالموت ! ولم يلبث أن عزّ عليه ما فعل فرفع يديه إلى السماء قائلاً : اللهم لا تبقني بعده . وبينما هو يدعو كذلك إذ أقبل صبي صغير لعمر ، فقال لابن أبي زكريا : وهذا فإني أحبه ، فدعا له ابن أبي زكريا . ثم لم يلبث حين مات عمر أن مات ابن أبي زكريا ومات الصبي[٢٠] .

لما ثقلت بعمر العلة وأيقن أنه صائر إلى الموت دعا صاحب دير سمعان وقال له : إني ميّت من مرضي هذا ! فحزن الديراني وبكى ، ثم قال له عمر : قد بلغني أنك تملك هذه الأرض ـ وأشار له نحو أرض الدير ـ فبعني موضع قبري من أرضك لعام واحد ، فإذا حال الحول فانبش الأرض وازرعها وانتفع بها . وتمّ البيع على ثمن لم يُدرَ بعد كم كان[٢١] .

وكان ممن أسرع إلى وداع عمر حين علم بمرضه عديل له ، فقال له عمر : نزل بي الموت ولم أتأهب له ، اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران لك في أحدهما رضا ولي في الآخر هوى إلا آثرت رضاك على هواي فاغفر لي[٢٢] .

(١٩) وهو من صلحاء أهل الشام .
(٢٠) ابن عبد الحكم ص١١٥ .
(٢١) مسالك الأبصار ١ : ٣٥٣ ومعجم البلدان ٤ : ١٤٨ .
(٢٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٣ .

ودخل رجاء بن حيوة على عمر وقال له : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك توصيه وتخوّفه فقال : والله إني لأعلم أنه من ولد مروان ! فقال له رجاء : يكون حجة عليه وعذراً لك عند الله ! فأمر كاتبه أن يكتب إليه : أما بعد يا يزيد فاتق الصرعة عند الغفلة ، فلا تُقال العثرة ولا يُقدر على الرجعة وتترك ما تترك لمن لا يحمدك ، وتنقلب إلى من لا يعذرك والسلام(٢٣) .

لما اشتدت الصرعة بعمر لم يبق حول سريره إلا فاطمة بنت عبد الملك زوجه ومسلمة أخوها ووصيف له يقال له مرثد ، فسهر وسهروا معه ثم تفرّقوا عنه حين طلع النهار . ولما أصبحوا أمرت فاطمة مرثداً وقالت له : يا مرثد ، كن عند أمير المؤمنين ، فإن كانت له حاجة كنت قريباً منه .

ولما انتصف النهار استيقظت فاطمة فتوجهت إليه فوجدت مرثداً خارج البيت نائماً ، فأيقظته وقالت : يا مرثد ، ما أخرجك ؟ قال : هو أخرجني ! قال : يا مرثد ، اخرج عني فوالله إني لأرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ، ما هم بأنس ولا جن ، فخرجت فسمعته يقول ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾(٢٤) .

وصية عمر

قال قتادة : كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولي العهد من بعده :

بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من عبد الله عمر إلى يزيد بن عبد الملك ، سلام عليك ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فإني كتبت وأنا دَنِفٌ من وجعي ، وقد علمت أني مسؤول عما وليت ،

(٢٣) الخليفة الزاهد ص٢٣٦ و٢٣٧ .
(٢٤) سورة القصص ـ الآية٨٣ .

يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة ، ولست استطيع أن أُخفي عليه من عملي شيئاً ، فإن رضي عني فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخط عليّ فيا ويح نفسي إلى ما أصير ، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته ، وان يمنّ عليّ برضوانه والجنة ؛ فعليك بتقوى الله ، الرعية الرعية فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً ، والسلام(٢٥) .

أقوال وآراء

قال أيوب : قيل لعمر بن عبد العزيز لما احتُضر : لو أتيت المدينة فإن مُتَّ دُفنت في موضع القبر الرابع مع رسول الله (ص) فقال : والله لئن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار أحبُّ إليّ من أن يعلم الله مني أني أراني لذلك الموضع أهلاً(٢٦) .

وقال هشام : لما جاء نعي عمر بن عبد العزيز قال الحسن البصري : مات خير الناس(٢٧) .

وقال خالد الربعي : إنا نجد في التوراة أن السموات والأرض تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً(٢٨) .

وقال يوسف بن ماهك : بينا نحن نُسوِّي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا كتاب رق من السماء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار(٢٩) .

---

(٢٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ .
(٢٦) تاريخ الخلفاء ص٢٤٤ .
(٢٧) المصدر نفسه ص٢٤٥ .
(٢٨) المصدر نفسه ص٢٤٥ .
(٢٩) المصدر نفسه ص٢٤٥ .

وقال مجاهد : قال لي عمر بن عبد العزيز : ما يقول الناس فيّ ؟ قلت : يقولون مسحور ، قال : ما أنا بمسحور ، وإني لأعلم الساعة التي سقيت فيها ، ثم دعا غلاماً له فقال له : ويحك ! ما حملك على أن تسقيني السم ؟ قال : ألف دينار أُعطيتها وعلى أن أعتق ، قال : هاتها ، فجاء بها الغلام فألقاها عمر في بيت المال ، ثم قال : إذهب حيث لا يراك أحد[٣٠] .

وقال موسى بن أعين : كنا نرعى الشاء بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فكانت الشاة والذئب ترعى في مكان واحد ، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب للشاة فقلت : ما نرى الرجل الصالح إلا قد هلك ، فحسبوه فوجدوه مات تلك الليلة[٣١] .

---

(٣٠) المصدر نفسه ص٢٤٦ .

(٣١) المصدر نفسه ص٢٣٣ .



الفصل السادس
عدل عمر

* كتب عمر إلى عدي بن أرطاة : العجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأني جُنّة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله . فانظر من قامت عليه البيّنة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقرّ فخذه بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلّ سبيله . وأيْم الله لئن يلقوا الله عزّ وجلّ بجناياتهم أحبّ إليّ من أن ألقى الله بدمائهم .

وكتب إليه أيضاً: إن أمكنتك القدرةُ على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالَكَ عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك .

* قال عمر : إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينُه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه فلعلّه قد فقئت عيناه جميعاً .

* قال مالك بن دينار : لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء في رؤوس الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس ؟ فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : إنه إذا قام خليفة صالح كفّت الذئاب والأسد عن شائنا !



الخليفة العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما وليَ الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري(1) أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن :

إعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوام كلّ مائل ، وقصدَ كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصَفَةَ كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباع ، ويكُنُّها من أذى الحرّ والقُرّ . والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، ويكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأمّ الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كُرهاً ووضعته كرهاً ، وربّته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكُن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته .

---

(1) البصري : هو الحسن بن يسار البصري ، إمام أهل البصرة ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء . ولد بالمدينة ، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب . عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم . قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة . توفي بالبصرة سنة ١١٠هـ . الأعلام ٢ : ٢٢٧ .

والإمـام العادل يـا أمير المؤمنين ، وصيُّ اليتـامى ، وخازن المسـاكين ، يـربّي صغيـرهم ، ويَمُون كبيـرهم . والإمام العادل يا أميـر المؤمنين ، كـالقلب بين الجـوارح : تصلح الجـوارح بصـلاحـه وتفسـد بفسـاده . والإمـام العادل يـا أميـر المؤمنين ، هو القـائم بين الله وبين عباده ، يَسمـع كلامَ الله ويُسمِعُهم ، ويَنظر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله عز وجل كعبدٍ ائتمنه سيّده واستحفظه مالـه وعيالـه ، فبدّد المـال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهلَه وفرّق ماله .

واعلم يـا أمير المؤمنين أن الله أنـزل الحـدود ليـزجُـر بهـا عن الخبـائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حيـاةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّةَ أشياعِك عنده وأنصارِك عليه ؛ فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقـك أحِبّاؤك ، يسلّمـونك في قعـره فريـداً وحيداً . فتـزوّدْ له مـا يَصْحَبُك ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾[٢] .

واذكـر يـا أميـر المؤمنين ﴿ إذا بُعثـر مـا في القبـور ، وحصّـل مـا في الصـدور ﴾[٣] فالأسـرار ظاهـرة ، والكتاب ﴿ لا يغـادر صغيـرة ولا كبيـرةً إلا أحصاها ﴾[٤] .

فالآن يا أمير المؤمنين ، وأنت في مَهَل ، قبـل حلول الأجَل ، وانقـطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يـرقُبون

---

(٢) سورة عبس ـ الآية ٣٤ .
(٣) سورة العاديات ـ الآية ٩ .
(٤) سورة الكهف ـ الآية ٤٩ .

في مؤمن إلّاً ولا ذِمَّة ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يَغُرَّنَّك الذين يتنعَّمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . ولا تنظرنّ إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدي الله تعالى في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد « عَنَتِ الوجوهُ للحيّ القيّوم »(٥) .

إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بِعِظتي ما بلغه أُولُو النُّهى من قبلي ، فلم آلك شفقةً ونصحاً ، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته(٦) .

وقال عمر يوماً لجلسائه : من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل إلى مالا أهتدي إليه . ويكون لي على الخير عوناً . ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحداً . ويؤدي الأمانة التي حملها بيني وبين الناس ، فإذا كان ذلك فحيّهلا ! وإلا فقد خرج من صحبتي والدخول عليّ(٧) .

وكان مما قاله لعمر بن مهاجر : إذا رأيتني ملتُ عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزّني ثم قل : يا عمر ما تصنع ؟(٨) .

وكتب عمر إلى ابن كعب أن يصف له العدل ، فقال ابن كعب : كن لصغير المسلمين أباً ولكبيرهم ابناً وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر

---

(٥) سورة طه ـ الآية ١١١ .
(٦) العقد الفريد ١ : ٢٥ و٢٦ .
(٧) ابن الجوزي ص٦٤ .
(٨) صفة الصفوة ٢ : ٦٩ .

ذنوبهم على قدر أجسامهم . ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً فتتعدى فتكون عند الله من العادين[٩] .

وكتب رحمه الله إلى سالم بن عبد الله بن عمر يسأله أن يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب ، فكتب إليه سالم يقول : ثم إنك كتبتَ إليّ تسأل أن أبعث إليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه بين المسلمين وأهل الذمّة ، وإن عمر ـ رحمه الله ـ عمل في زمان غير زمانك ، وأنا أرجو إن عملت بمثل ما عمل به أن تكون عند الله أفضل منزلة[١٠] .

وكتب إلى رجل من بقية أهل الشام يشكو إليه قلّة الأعوان على الخير ويسأله معونته برأيه ، فكتب إليه الرجل : بلغني كتاب أمير المؤمنين ، يذكر فيه ما ابتلي به من أمور المسلمين وقلّة الأعوان على الخير ويطلب مني المعاونة واعلم أنك إنما أصبحت في خَلَفٍ بالٍ ورسم دارس . خاف العالم فلم ينطق ، وجهل الجاهل فلم يسأل . وتسألني المعاونة فيما أنعم الله عليّ ! فلا تكوننّ ظهيراً للمجرمين[١١] .

وكتب سالم بن عبد الله يعظه ويذكّره : إنه كان قبلك رجال عملوا ما عملوا وأماتوا ما أماتوا من الحق ، وأحيوا ما أحيوا من الباطل حتى وُلد فيه رجالٌ ونشأوا فيه وظنّوا أنه السنّة ، ولم يسدّوا على العباد باب رخاء إلا فتح الله عليهم باب بلاء ، فإن استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فإنك لا تفتح منها باباً إلا سُدّ عليك باب بلاء[١٢] .

وكان القرظي يقول لعمر : إن فيك عقلاً وإن فيك جهلاً ، فداو بعض ما

---

(٩) ابن الجوزي ص١١ .
(١٠) ابن الجوزي ص١٣١ .
(١١) الخراج لأبي يوسف ص١١٤ .
(١٢) ابن الجوزي ص١٣٠ .

فيك ببعض . وآخِ من الإخوان من كان ذا معلاة في الدين ونيّة في الحق . ولا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته إليك ، فإذا قضى حاجته منك ذهبَ ما بينك وبينه . وإذا غرست غراساً من المعروف فلا تبغين أن تحسن تربيته[١٣] .

وخطب ابن الأهثم بين يديه فقال : إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها وألقمتك ثديها ، فلما وُليتَها ألغيتها ، وأحببتَ لقاء الله وما عنده . فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا وكشف بك كربتنا . امضِ ولا تلتفت ، فإنه لا يغني عن الحق شيء[١٤] .

وقال عمر لزياد بن أبي زياد يوماً : يا زياد ، إني أخاف الله مما دخلت فيه ! فقال زياد : لست أخاف عليك من أن تخاف ، وإنما أخاف عليك ألا تخاف[١٥] !

ومن أقوال عمر : إن الله لا يؤاخذ العامة بعمل الخاصة ، فإذا ظهرت المعاصي فلم تنكر استحقوا العقوبة[١٦] . وقد خطب يفطّن الرعية إلى حقوقها فقال: أيها الناس ، لا يبعدنّ عليكم ولا يطولنّ يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، لا يستطيع أن يزيد من حسن ولا يعتب من سيء . ألا لا سلامة لامريء في خلاف السنّة . ولا طاعة لمخلوق في معصية الله . ألا وإنكم تسمّون الهارب من ظلم إمامه ـ العاصي ، ألا وإن أولاهما بالمعصية ـ الإمام الظالم[١٧] .

---

(١٣) عيون الأخبار ٣ : ٤ .
(١٤) العقد الفريد ٤ : ٩٩ .
(١٥) البيان والتبيين ٣ : ١٦ و١٧ .
(١٦) الخراج لأبي يوسف ص١١ .
(١٧) ابن الجوزي ص٢٠٤ .

وكان عمر يسترشد بآراء النصحاء والأمناء ويدعوهم إلى الأخذ بيده : ألا إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحقّ ، لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدّى أو بلغكم عن عامل لي ظُلامة فأحرّج الله على مَنْ بلغه ذلك إلا بلّغني(١٨) .

هذه الأقوال والمواعظ والمواقف تبقى رهينة التنفيذ ، وقد باشرها عمر يوم ولي أمرها إليه . فحين انصرف من دفن سليمان وردّ القطائع إلى بيت المال وسهر في بيع المتاع والبراذين والسرادقات . . . وعمل حتى الظهر وصلى ذهب يتبوأ مقيلاً فأتاه عبد الملك ابنه فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني ، أريد أن أقيل . قال : تقيل ، ولا تردّ المظالم ؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فإذا قِلتُ قمتُ فرددتُ المظالم . قال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش حتى تقوم فتردّها ؟ فقال عمر : أي بني ، ادنُ مني ، فدنا منه ابنه فالتزمه وقبّل ما بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني . ثم خرج ولم يَقِل ولم يسترح ، وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فيرفعها ! فجاء رجل ذمّيّ من أهل حمص قد ابيضّت لحيته ورأسه فقال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله ، إن العباس بن الوليد اغتصبني أرضي - والعباس حاضر - فقال عمر : يا عباس ، ما تقول ؟

قال عباس : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر : ما تقول أيها الذمّيّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله عز وجل ! فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتّبع ! قم يا عباس فاردد عليه ضيعته . فردّها العباس(١٩) .

---

(١٨) تاريخ الطبري ٥ : ٢١٦ .
(١٩) صفة الصفوة ٢ : ٦٥ .

ورأى عبد الملك أباه عمر متردّداً يوماً ، فقال له : ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك ! فقال عمر : يا بني ، إني أروض الدنيا رياضة الصعب . إني أريد أن أحيي الأمور من العدل فأؤخر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه[٢٠] .

ودخل عبد الملك على أبيه يوماً ، وكان عنده عمه مسلمة ، فطلب إلى أبيه أن يخليه به ، فقال له : أسرٌّ دون عمك ؟ قال : نعم . فقام مسلمة وجلس هو بين يدي أبيه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال: رأيت بدعة لم تمتها أو سنة لم تحيها ؟ فقال عمر : يا بني ، أشيء حملك أم رأي رأيته ؟ قال : لا والله ، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، عرفت أنك مسؤول عنه ، فما أنت قائل ؟ قال أبوه : يرحمك الله يا بني ويجزيك من ولد خيراً ، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير ، يا بني ، إن قومك شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء . والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم ! أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين[٢١] .

وقال ميمون بن مهران : بعث إليّ عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبي قلابة فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفاً كرهه عمر . قال : أرى أن تستأنف . فنظر عمر إليّ كالمستغيث بي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابعث إلى عبد الملك فأحضره فإنه

---

(٢٠) ابن الجوزي ص٧١ .

(٢١) صفة الصفوة ٢ : ٧٢ .

ليس بدون من رأيت . فقال عمر : يا حارث ، ادعُ لي عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلماً وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قال : أرى أن تردها ، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها[٢٢] .

وقال زياد لعمر يوماً : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن رجل له خصم ألدّ ما حاله ؟ فقال عمر : سيء الحال ! قال زياد : فإن كانا خصمين ألدّين ؟ فقال عمر : ذاك أسوأ لحاله ! قال زياد : فإن كانوا ثلاثة ؟ فقال عمر : ذاك حين لا يهنيه عيش ! فقال زياد : فوالله يا أمير المؤمنين ما أحدٌ من أمّة محمد إلا وهو خصمٌ لك ! فبكى عمر حتى تمنى زياد ألا يكون قد قال له ما قال[٢٣] .

وكتب إليه أحد عماله يقول : إنا أتينا بساحرة فألقيناها في الماء فطفت عليه فما ترى فيها ؟ فكتب إليه عمر يقول : لسنا من الماء في شيء ! إن قامت عليها بيّنة وإلا خلّ سبيلها[٢٤] .

ومما كتبه عمر بن عبد العزيز لعماله وقضاته : ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، في كل شبهة ، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو خيرٌ له من أن يتعدّى في العقوبة !

وحكي أن عمر ردّ الطامع حين عرف طمعه . قالوا : إنه قدمت بين يديه عنبرة عظيمة بعد موت سليمان ، وكان رجل قد انتظرها حين تعرض ، فلما قدّمت قام يدّعيها فقال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فقال عمر : ما شأنها ؟ قال: بعتها سليمان بن عبد الملك بسبعة آلاف درهم ، وهي خير من ثمانية عشر ألفاً .

---

(٢٢) ابن الجوزي ص١٠٥ .

(٣٣) ابن الجوزي ص١٣٩ .

(٢٤) العقد الفريد ٤ : ٤٣٣ ، ٤٣٧ .

قال عمر : ويحك ! هل أخافوك ؟ قال : لا . قال عمر : فهل أكرهوك أو غصبوك ؟ قال : لا . قال عمر : فماذا ؟ قال: عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فأمر عمر به أن يتأخر فلا حق له[٢٥] !

فالقضاء أمر مقدّس عند عمر ، والعدالة لا تتمّ إلا بتنفيذ الأحكام . فما عُرضت قضية عليه وكان يعرف تفاصيلها من قبل ويثق بها إلا حكم فيها من فوره ، كما حكم في قضايا أبناء الوليد لمن ظلموهم من أهل حمص[٢٦] .

قال أبو الزناد : كان عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم إلى أهلها بغير البيّنة القاطعة ، وكان يكتفي باليسير ، إذا عرف وجه مظلمة الرجل ردّها عليه ، ولم يكلفه تحقيق البيّنة ، لما كان يعرف من غشم الولاة قبله على الناس .

وكان عمر يتقاضى مع الناس بالعدل ، وقد جاءه يوماً مصريّ من حلوان يقول إن أباه عبد العزيز اغتصب ضيعته في إبّان ولايته على مصر ، وعنُف المصريّ على عمر فَلاَنَ له وقال : نازعني منازعة كريمة ، ولا تشتم عرضي ، فإن لي فيه شركاء ، إخوة وأخوات ، وهؤلاء لا يرضون أن أردّ لك الضيعة بغير القضاء ، والرأي أن تذهب إلى القاضي .

واستمع القاضي للمتخاصمين فقضى للمصري فقال عمر : قد أنفقنا عليها ألف ألف درهم ! فنظر القاضي فإذا عمر وأهله قد أخذوا من غلتها بقدر ما أنفقوا ، فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها فردّوها لصاحبها ! فقال عمر : بارك الله عليك أيها القاضي ، وقام فردّ الأرض للمصري[٢٧] .

ووقع في يد عمر رقعة رجل يتظلم من ابنه فكتب : إن لم أنصفك منه فأنا

---

(٢٥) ابن الجوزي ص٨٠ .
(٢٦) حياة الحيوان ١ : ٦٩ .
(٢٧) المرشد ٤ : ١٢٩ .

ظلمتك[٢٨] .

وكان عمر يتريّث في تنفيذ الأحكام ، ولما حاول ابنه أن يستثيره قال : يا بني ، إن نفسي مطيتي إن لم أرفق بها لم تبلغني . إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا . . . وإن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكنّ الإيمان في قلوبهم . فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشاره عليّ ، ولكني أنصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك مَنْ وراءه فيكون أنجح له . فإن يريد الله إتمام هذا الأمر أتمّه ، وإن تكن الأخرى . فحسبُ عبدٍ أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته[٢٩] .

وكتب إليه عدي بن أرطاة يوماً يستأذنه أن يمسّ الناس بشيء من العذاب ليقرّوا ، فكتب إليه عمر : أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأني جُنّة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر من قامت عليه البيّنة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقرّ فخذه بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلّ سبيله ، وأيّم الله لئن يلقوا الله عز وجل بجناياتهم أحبّ إليّ من أن ألقى الله بدمائهم . والسلام[٣٠] .

وحدث أن عبد الحميد بن عبد الرحمن جعل يرادّ الخليفة في المظالم ويراجعه فيها فكتب إليه عمر : إنه يخيّل لي أني لو كتبت لك أن تعطي رجلاً شاة لكتبتَ إليّ :أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت إليك بأحدهما لكتبتَ إليّ صغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبتُ بأحدهما لكتبتَ : ضائنة أم معز ؟ فإذا كتبتُ إليك فنفّذ ، ولا

---

(٢٨) العقد الفريد ٤ : ٢٠٩ .

(٢٩) ابن الجوزي ص١٠٦ .

(٣٠) ابن عبد الحكم ص١٢٩ وابن الجوزي ص٧٩ والعقد الفريد ٤ : ٤٣٤ والخراج لأبي يوسف ص١١٩ .

تردّ عليّ . والسلام[٣١] .

وكان مسجد دمشق يغصّ بالشاكين من الغرباء فخطبهم عمر قائلاً : أيها الناس ، إني أنساكم هنا وأذكركم في بلادكم ، فمن أصابته مظلمة من عامله فلا إذن لـه عليّ ، ومن لا فلا أرينّـه ، وإني والله إن منعت نفسي وأهل بيتي هـذا المال وضننت به عليكم إني إذن لضنين ! فسار الناس إلى بلدانهم فـرحين أن تلحق بهم العدالة في الطريق[٣٢] .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة : أمـا بعد ، فـإن أمكنتك القدرةُ على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك[٣٣] .

وقال عمر أيضاً : إذا أتاك الخصم وقد فُقئت عينُه ، فـلا تحكم له حتى يأتي خصمه ؛ فلعلّه قد فقئت عيناه جميعاً[٣٤] .

وحدّث أبو حاتم عن الأصمعي قال : بلغني أن وافداً وفد على عمـر بن عبد العزيز رحمه الله فقال له : كيف تركت الناس ؟ قال : تركت غنيهم موفوراً وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومـظلومهم منصوراً ، فقـال : الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي لكان يسيراً[٣٥] .

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز يستأذنه في بناء مدينة ، فكتب له : ابنِها بالعدل ، ونقِّ طرقها من الظلم[٣٦] .

---

(٣١) العقد الفريد ٤ : ٤٣٧ .
(٣٢) ابن الجوزي ص٥٤ و٧١ .
(٣٣) العقد الفريد ١ : ٣٠ .
(٣٤) المصدر نفسه ١ : ٦٢ .
(٣٥) الأمالي ٢ : ٢٧ .
(٣٦) العقد الفريد ٧ : ٢١٤ و٢١٥ .

وجيء عمر ذات يوم بسارق فشكا إليه حاجته فعذره عمر وعفا عنه وأمر له بنحوٍ من عشرة دراهم[٣٧] .

وجاء رجل فقام بين يديه وقال له : يا أمير المؤمنين ، اشتدت بي الحاجة وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فقال له ما عيالك ؟ قال : خمسة ، أنا وامرأتي وثلاثة أولاد ، ففرض له ولأولاده[٣٨] .

وخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء كتاباً تذكر فيه أن لها حائطاً قصيراً ، وأنه يُقتحم عليها منه فيُسرق دجاجها ، فكتب عمر :

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة . بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك منه فيُسرق دجاجُك ، فقد كتبتُ لك كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل ، آمره أن يبني لك ذلك حتى يحصّنه لك مما تخافين إن شاء الله والسلام .

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل ـ وكان أيوب عامله على صدقات مصر ـ من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل .

أما بعد . فإن فرتونة كتبت إليّ تذكر قصر حائطها وإنه يُسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها .

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب بنفسه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصّنه لها[٣٩] .

---

(٣٧) ابن الجوزي ص٥٧ و٧٩ وابن عبد الحكم ص٦٥ و١٧٧ .
(٣٨) الخليفة الزاهد ص١٧٥ .
(٣٩) الخليفة الزاهد ص١٧٥ .

ولما ولي عمر الخلافة قام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، أعدني على هذا وأشار إلى رجل ، قال : فيم ؟ قال : أخذ مالي وضرب ظهري . فدعا به عمر فقال : ما يقول هذا ؟ قال : صدق ، إنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك : « وطاعتكم فريضة » .

قال : كذبتَ ! لا طاعة لنا عليكم إلا في طاعة الله . وأمر بالأرض فردّت إلى صاحبها(٤٠) .

وقال عبد الله بن المبارك : كنت مع خالد بن يزيد بن معاوية في صحن بيت المقدس ، فلقينا عمر بن عبد العزيز ولا أعرفه ، فأخذ بيد خالد وقال : أعلينا عين ؟ قلت : عليكما من الله عين بصيرة وأذن سميعة ! قال : فاستلّ يده من يد خالد وأُرعد ودمعت عيناه ومضى ، فقلت لخالد : من هذا ؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز ، وإن عاش فيوشك أن يكون إماماً عدلاً(٤١) .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز قال لمولاه مزاحم : إن أهلي أقطعوني ما لم يكن إليّ أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه ، وإني قد هممتُ بردّه على أربابه . قال : فكيف نصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : أكلهم إلى الله . قال : وجد لولده ما يجد الناس ، فخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له : إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا ، وهذا أمر يضرّكم وقد نهيته عنه .

فقال عبد الملك : بئس وزير الخليفة أنت ! ثم قام فدخل على أبيه وقال له : إن مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك ؟

قال : إني أريد أن أقوم به العشية .

قال عبد الملك : عجّله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك

---

(٤٠) العقد الفريد : ١٧٠ .

(٤١) المصدر نفسه ٥ : ١٧٠ .

حدث ؟ فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذريّتي مَن يعينني على ديني !ثم قام به من ساعته في الناس وردّها[٤٢] .

وقيل أيضاً : لما ولي عمر الخلافة أخذ من أهله ما بأيديهم وسمّى ذلك مظالم ، ففزع بنو أميّة إلى عمته فاطمة بنت مروان ، فأتته فقالت له : تكلّم أنت يا أمير المؤمنين . فقال : إن الله بعث محمداً (ص) رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولي عمر فعمل عملهما ، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضى الأمر إليَّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه .

قالت : حسبك ، قد أردت كلامك ، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً . فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه .

وقيل إنها قالت له : إن بني أمية يقولون كذا وكذا ، فلما قال لها هذا الكلام قالت انهم يحذرونك يوماً من أيامهم ، فغضب وقال : كل يوم أخافه غير يوم القيامة فلا أمنتُ شرّه .

فرجعت إليهم وأخبرتهم قائلة : أنتم فعلتم هذا بأنفسكم ، تزوّجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جدّه[٤٣] .

لما ردّ عمر مظالم أهل مكة وزارها ثم خرج ، مضى معه رجل مع من يشيّعه وكان أحد الولاة حبسه وأخذ ماله غصباً واستحلفه ألا يخاصمه أبداً . فشكا الرجل إلى عمر قائلاً : ظُلمتُ ولا أستطيع أن أتكلم ! فأدرك عمر أنه أُخذت عليه يمين ، فجاء بالوالي ونكف بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال

---

(٤٢) الكامل في التاريخ ٥ : ٦٣ و٦٤ .

(٤٣) المصدر نفسه ٥ : ٦٤ و٦٥ .

له : هذه غرّتني منك ! ثم قال للرجل : إذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنثَ عليك[٤٤] !

وجاء رجل من أذربيجان فقام بين يدي عمر يشكو عامل بلده فقال : إنه عدا عليّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم فجعلها في بيت مال المسلمين . فقال عمر: اكتبوا الساعة إلى عاملها حتى يردّها عليه[٤٥] .

ودخل شيخ من أهل المشرق هو وابن أخيه على عمر فاختصما عنده . وكان الشيخ قد أطال شاربيه حتى غطيا فمه وسال شعرهما عليه . وبينما هذا الشيخ يريد الصلة والصلح إذ التوى به الشر فمال إلى اللجاج ثم غضب فدعته نفسه إلى القطيعة ، فنظر إليه عمر متعجباً وقال له : ما رأيت أحلى منك ولا أمرّ ولا أبعد ولا أقرب ، بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم ! قال عمر هذا ثم نادى قائلاً : يا مينا ، فانفرج الباب عن حجام لعمر قد أقبل مسرعاً يتلقى أمر الخليفة ، فلما رآه عمر قال له : أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربه ثم ائتني به ؛ وفعل مينا الحجام ما أمر به ، وردّ الرجل إلى مكانه من الخصومة بين يدي الخليفة ، فقال عمر : هذا أطيب وأنظف مع الفطرة . هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك ! قالا : نعم . فأصلح ذات بينهما ، فرفع يديه إلى السماء وقال : الحمد لله[٤٦] !

وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر: إن رجلاً شتمك فأردت أن أقتله .

فكتب إليه : لو قتلته لاقتدتك به ، فإنه لا يُقتل أحد بشتم أحد إلا رجل شتم نبياً[٤٧] .

---

(٤٤) الخليفة الزاهد ص١٦٩ وابن عبد الحكم ص١٣٨ .
(٤٥) ابن الجوزي ص٧٥ .
(٤٦) الخليفة الزاهد ص١٧٤ .
(٤٧) العقد الفريد ٥ : ١٧٢ .

وقال عمر لبني مروان : أدُّوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تلجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون ! فلم يجبه أحد منهم ، فقال : أجيبوني . فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا ، فنفقر أبناءنا ، ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رؤوسنا . فقال عمر : أما والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلاً ، ولكنني أخاف الفتنة ، ولئن أبقاني الله لأردّنّ إلى كل ذي حقّ حقه إن شاء الله(٤٨) .

وكان عمر إذا نظر إلى بني أمية قال : إني أرى رقاباً ستردّ إلى أربابها(٤٩) .

القضاة والفقهاء

قال عمر بن عبد العزيز : إذا كان في القاضي خمسُ خصال فقد كمل : عِلمٌ بما كان قبله ، ونزاهةٌ عن الطمع ، وحلمٌ عن الخصم ، واقتداءٌ بالأئمة ، ومشاورة أهل العلم والرأي(٥٠) .

وفي رواية أخرى ، أنه ينبغي أن يجتمع للقاضي خمس خصال : يكون عالماً بما مضت عليه السنة ، حليماً ، ذا أناة ، عفيفاً مشاوراً . فإذا اجتمع ذلك في القاضي كان قاضياً ، وإن نقص منهنّ شيء كان وصماً فيه(٥١) .

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مجلز عن رجل يوليه خراسان . فقال له : ما تقول في فلان ؟ قال : مصنوع له وليس بصاحبها . قال : ففلان ؟ قال : سريع

(٤٨) المصدر نفسه ٥ : ١٧٣ .
(٤٩) العقد الفريد ٥ : ١٧٣ .
(٥٠) العقد الفريد ١ : ٦٢ .
(٥١) ابن الجوزي ص٢٣٨ .

الغضب بعيد الرضا ، يسأل الكثير ويمنع القليل ، يحسد أخاه وينافس أباه ويحقر مولاه قال : ففلان ؟ قال: يكافىء الأكفاء ويعادي الأعداء ويفعل ما يشاء . قال : ما في واحد من هؤلاء خير[٥٢] .

وكتب إلى عدي بن أرطاة : أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني فولِّ القضاء أنفذهما ؛ فجمع بينهما . فقال له إياس : أيها الرجل ، سلْ عني وعن القاسم فقيهي البصرة : الحسن وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتي الحسن وابن سيرين وكان إياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عني ولا عنه ؛ فوالله الذي لا إله إلا هو إنّ إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء ؛ فإن كنت كاذباً فما ينبغي أن تولّيني وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي . فقال له إياس : إنك جئت برجل فوقفته على شفير جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال له عدي : أما إذا فهمتها فأنت لها . فاستقضاه[٥٣] .

وأراد عمر مكحولاً على القضاء فأبى عليه . قال له : وما يمنعك ؟ قال مكحول: قال رسول الله (ص) : لا يقضي بين الناس إلا ذو شرف في قومه ، وأنا مولى .

وكان ممن كتب إلى عمر يستعفيه ميمون بن مهران عامله على خراج الجزيرة[٥٤] وقاضيه بها ، فكتب إليه عمر يقول : إني لم أكلفك ما يعنّيك . اجتن الطيب واقض بما استبان لك من الحق . فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليَّ . فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا[٥٥] .

---

(٥٢) العقد الفريد ١ : ١٥ .
(٥٣) العقد الفريد ١ : ١٤ .
(٥٤) المصدر نفسه ١ : ١٦ .
(٥٥) الخراج لأبي يوسف ص١١٥ .

وشكا إليه عامل سهره وتعبه فكتب إليه: يا أخي ، اذكر سهر أهل النار في النار ، وخلود الآباء فيها ، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك والسلام . فلما قرأ العامل كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ! لا وَليت لك ولاية أبداً حتى ألقى الله سبحانه(٥٦) .

لقد حاول عمر من خلال سياسته العادلة أن يساوي بين العرب والموالي ، وألا يتعصب لقبيلة دون أخرى ، وألا يولي والياً إلا لكفاءته وعدله ، فعزل الولاة الذين تجرأوا على الحق والعدل أمثال الجراح بن عبد الله وولى مكانه من عرف بالكفاءة والإنصاف . وبذلك ظهر الالتزام الديني واضحاً في عهده أملاً في امتصاص النقمة التي تولّدت ضد الأمويين على مرّ العصور .

ومن الذين ساهموا في مسيرة عمر السياسية العادلة : رجاء بن حيوة ، وإياس بن معاوية ، وعبدالرحمن بن نعيم ، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيري ، وعبد الله بن المغيرة ، ومكحول فقيه الشام ، والسمح بن مالك الخولاني ، وعدي بن أرطاة ، والحسن البصري ، ومحمد بن كعب القرظي ، وسالم بن عبد الله ، وزياد بن أبي زياد ، وعبيد الله بن عتبة ، والقاسم بن ربيعة الجوشني ، وميمون بن مهران ، وأبوقلابة ، ويزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة وعبد الله بن أبي جعفر وغيرهم .

١ ـ وأما رجاء بن حيوة فهو شيخ أهل الشام في عصره ، ومن الوعاظ الفصحاء العلماء . كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة ، واستكتبه سليمان بن عبد الملك ؛ وهو الذي أشار عليه باستخلاف

---

(٥٦) حياة الحيوان الكبرى ١ : ١٣٥ .

عمر[٥٧] .

٢ ـ وأما إياس بن معاوية فهو قاضي البصرة ، وأحد أعاجيب الدهـر في الفطنة والذكاء . يضرب المثل بذكائه وزكنه[٥٨] قيل له : ما فيك عيب غير أنك معجب ! فقال : أيعجبكم ما أقول ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أحق أن أعجب به .

ودخـل مدينـة واسط فقال لأهلهـا بعد أيـام : يوم قـدمت بلدكم عـرفت خياركم من شراركم ، قالوا : كيف ؟ قال : معنا قوم خيار ألفـوا منكم قومـاً ، وقوم شرار ألفوا قوماً ، فعلمت أن خياركم من ألفه خيارنا وكذلك شراركم .

قال الجاحظ : إياس من مفاخر مضر ومن مقدمي القضاة ، كـان صادق الحدس ، عجيب الفراسة ، ملهماً ، وجيهاً عند الخلفاء[٥٩] .

٣ ـ وأما مكحول فهو فقيه الشام في عصره ، ومن حفاظ الحديث . أصله من فارس ، ومولده في كابل حيث ترعرع بها وسُبي وصار لامرأة بمصر ، فنسب إليها . أعتق وتفقّه ورحل في طلب الحديث إلى العراق ، فالمـدينة ، وطـاف كثيراً من البلدان ، واستقر في دمشق .

قال الزهري : لم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا .

ومن أخباره : قال ابن جابر : أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مكحول ، في أصحابه ، فهممنا بالتوسعة له ، فقال مكحول : مكانكم ، دعـوه يجلس حيث أدرك[٦٠] .

---

(٥٧) تذكرة الحفاظ ١ : ١١١ وتهذيب التهذيب ٣ : ٢٦٥ .
(٥٨) الزكن : التفرس في الشيء بالظن الصائب .
(٥٩) وفيات الأعيان ١ : ٨١ والبيان والتبيين ١ : ٥٦ .
(٦٠) تذكرة الحفاظ ١ : ١٠١ والأعلام ٧ : ٣٨٤ .

٤ ـ وأما السَّمح بن مالك الخولاني فهو أمير استعمله عمر بن عبد العزيز على الأندلس ، وأمره أن يميز أرضها ، ويخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس ، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس . فقدمها سنة ١٠٠هـ ، وفعل ما أمره به عمر . واستشهد عازباً بأرض الفرنجة ، في الوقعة المشهورة بوقعة البلاط . وكانت قرطبة عاصمة إمارته ، وهو الذي بنى قنطرتها[٦١] .

٥ ـ وأما عدي بن أرطاة فهو أمير من أهل دمشق . كان من العقلاء الشجعان ، ولاّه عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة ٩٩هـ ، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، بواسط ، في فتنة أبيه يزيد بالعراق[٦٢] .

وأما الحسن البصري فهو إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه . وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النسّاك . ولد في المدينة ، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب ، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية .

عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، لا يخاف في الحق لومة لائم .

قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة . وكان غاية في الفصاحة ، تتصبّب الحكمة من فيه ، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف مشهودة ، وقد سلم من أذاه .

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه : إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعواناً يعينوني عليه . فأجابه الحسن : أما أبناء الدنيا فلا تريدهم ، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك ، فاستعن بالله[٦٣] .

(٦١) نفح الطيب ١ : ١١١ .
(٦٢) الكامل للمبرد ٢ : ١٤٩ وتاريخ اليعقوبي ٣ : ٥٣ .
(٦٣) حلية الأولياء ٢ : ١٣١ .

٦ ـ وأما سالم بن عبد الله فهو أحد فقهاء المدينة السبعة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم . دخل على سليمان بن عبد الملك فما زال سليمان يرحب به ويرفعه حتى أقعده معه على سريره(٦٤) .

٧ ـ وأما عبيد الله بن عتبة فهو مفتي المدينة وأحد الفقهاء السبعة فيها، له شعر جيّد أورد أبو تمام قطعة منه في « الحماسة » وأورد أبو الفرج كثيراً منه في « الأغاني » وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز .

٨ ـ وأما ميمون بن مهران فهو فقيه من القضاة . كان مولى لامرأة بالكوفة وأعتقته ، فنشأ فيها ، ثم استوطن الرقّة ، فكان عالم الجزيرة وسيدها . استعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها . وكان على مقدمة الجيش الشامي مع معاوية بن هشام بن عبد الملك لما عبر البحر غازياً إلى قبرص سنة ١٠٨ هـ . وكان ثقة في الحديث وكثير العبادة(٦٥) .

٩ ـ وأما أبو قلابة فهو عبد الله بن زيد أحد العلماء بالقضاء والأحكام . أرادوه على القضاء فهرب إلى الشام ومات فيها . وكان من رجال الحديث الثقات(٦٦) .

١٠ ـ وأما يزيد بن أبي حبيب فهو يزيد بن سويد الأزدي وهو مفتي أهل مصر في صدر الإسلام ، وأول من أظهر علوم الدين والفقه بها .

قال الليث : يزيد عالمنا وسيدنا . وكان حجة حافظاً للحديث(٦٧) .

---

(٦٤) تهذيب التهذيب ٣ : ٤٣٦ وحلية الأولياء ٢ : ١٩٣ .
(٦٥) تذكرة الحفاظ ١ : ٧٤ وسمط اللآلي ٧٨١ .
(٦٦) تذكرة الحفاظ ١ : ٩٣ وحلية الأولياء ٤ : ٨٢ .
(٦٧) تهذيب ابن عساكر ٧ : ٤٢٦ .





الفصل السابع

زهد عمر

* أوصيكم بتقـوى الله ، فـإن تقـوى الله خَلَفٌ من كـل شيء ، واعملوا لآخـرتكم ، وأصلحـوا سرائركم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات .

* قال عمر رحمه الله : أنا الذي أمرتني فقصّرت ، ونهيتني فعصيت ، ولكن لا إله إلا الله .

* كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا وقاني الله شرّه .

* يا فاطمة ، إني أخاف النار ! يا فاطمة إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

* كتب عمر إلى رجل : اتّق الدنيا فإنّ مسّها ليّن ، وارفض نعيمهـا لقلّة ما يتبعـك منه ، واتـرك ما يُعجبك منها لسرعة مفارقتها .

عرف عمر بن عبد العزيز بورعه وزهده وتأثره بـآراء علماء الـدين . وقد تمتّع على مّر الأجيـال بشهرة واسعـة لتقاه . وهـو من هذه النـاحية منفـرد بين الخلفاء الأمويين الذين لم يتقيّدوا كثيراً بأمور الدين ، ويُعدّ عمر وليّاً بين خلفاء بني أمية . وفي الأحاديث التي تناقلها الناس فيما بعد : أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة مبعوثاً يحيـي ما اندثر من الإسلام . ومن هنا فقد زعموا أن عمر بن عبد العزيز هو الذي بُعث على رأس المئة الثانية . وقد زعموا كذلك أن الإمام الشافعي هو الذي بعث على رأس المئة الثالثة .

ـ وقد أخبرنا ابن الجوزي أن هذا الخليفة كان يلبس الخلق من الثياب ، ويختلط برعيته دون تكلف أو ترفّع ؛ حتى أن الغريب إذا جاء يقصده لم يميّزه عن عامة الشعب .

ويروى أن أحد عماله كتب إليه يوماً يقول : إن الإصلاحات التي أدخلها الخليفة على بيوت المال لفائدة الداخلين في الإسلام جعلت الناس كثيرين في الإسلام ، وإنه يُخشى قلّة الخراج . فكتب إليه عمر :

« والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حرّاثين نـأكل من كسب أيدينا »(١) .

---

(١) تاريخ العرب ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .

وعن سهل بن يحيى محمد المروزي قال : أخبرني أبي عن عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز قال : لما دفن عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجّة فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قُرِّبت إليك لتركبها . فقال : ما لي ولها ؟ نحّوها عني ، قرّبوا إلي بغلتي فقُرّبت إليه بغلته فركبها ، فجاءه صاحب الشُّرَط يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحَّ عني ما لي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين(٢) .

فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال : يا أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبةٍ ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم . فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فَلِ أمرنا باليمن والبركة . فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي به الناس جميعاً حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص) وقال :

أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء ، ليس من تقوى الله عز وجل خلف ، فاعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يُصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباً حياً لمعْرِق في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عزّ وجلّ ولا في نبيها ولا في كتابها ، إنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً .

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال :

---

(٢) صفة الصفوة ٢ : ١١٤ .

يا أيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم(٣) .

ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحُملت ، وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين . ثم ذهب يتبوّأ مَقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال أي بنيّ أقيل . قال : تقيل ولا تردّ المظالم ؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمّك سليمان ، فإذا صلّيت الظهر رددتُ المظالم . قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادنُ مني أي بني ؛ فدنا منه فالتزمه وقبّل بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يُعينني على ديني(٤) .

وعن بعض خاصة عمر بن عبد العزيز أنه حين أفضت إليه الخلافة سمعوا في منزله بكاءً عالياً . فسئل عن البكاء فقيل : إن عمر بن عبد العزيز خيَّر جواريه فقال : إنه قد نزل لي أمرٌ قد شغلني عنكنّ ، فمن أحبّ أن أعتقه أعتقتُه ، ومن أراد أن أُمسِكه أمسكته ولم يكن مني إليها شيء ، فبكين يأساً منه(٥) .

وعن الثقة أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أما بعد فإنك كتبتَ إلى سليمان كتباً لم ينظر فيها حتى قُبض رحمه الله ، وقد بليت بجوابك . كتبتَ إلى سليمان تذكر أنه يقطع لعمال المدينة من بيت مال المسلمين ثمن شمع كانوا يستضيئون به حين يخرجون إلى صلاة العشاء وصلاة الفجر ، وتذكر أنه قد نفد الذي كان يستضاء به . وتسأل أن يُقطع

(٣) صفة الصفوة ٢ : ١١٥ .
(٤) صفة الصفوة ٢ : ١١٥ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ١١٨ .

لك من ثمنه بمثل ما كان للعمال ، وقد عهدتك وأنت تخرج من بيتك في الليلة المظلمة الماطرة الـوَحِلة بغير سـراج ، ولعمري لأنت يـومئذ خيـر منك اليـوم والسلام(٦) .

وعن رجـاء بن حيوة قـال : كان عمـر بن عبد العـزيز من أعـطر النـاس وأخيلهم في مشيتـه ، فلما استُخلف قـوّموا ثيـابه اثنى عشـر درهماً : كُمّتـه(٧) وعمامته وقميصه وقَبَاءَه وقُرطقه(٨) ورداءه وخُفَّيه(٩) .

وعن مسلم قال : دخلت على عمر بن عبـد العزيـز وعنده كـاتبٌ يكتب وشمعةٌ تزهر(١٠) ، وهو ينظر في أمور المسلمين قال : فخرج الرجل ، فأُطفئت الشمعةُ ، وجيء بسراج إلى عمر ، فدنوت منه ، فرأيت عليه قميصاً فيه رقعة قد طبّق ما بين كتفيه . قال : فنظَرَ في أمري(١١) .

وعن مسلمة بن عبد الملك قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسِخ . فقلت لفاطمة بنت عبد الملك : يا فاطمة ، اغسلي قميص أمير المؤمنـين، قالت : نفعل إن شاء الله . ثم عُدتُ فإذا القميص على حاله فقلت : يا فاطمة ، ألـم آمرك أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين فـإن الناس يعودونه ؟ قالت : والله ما له قميصٌ غيره(١٢) .

وعن الفهري عن أبيه قال : كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفيء ، فتناول ابنٌ له صغيرٌ تفاحة فانتزعها من فيه فأوجعه ، فسعى إلى أمه مستعبراً ،

---

(٦) المصدر نفسه ٢ : ١١٩ .
(٧) الكمة : القلنسوة المدورة لأنها تغطي الرأس .
(٨) القرطق : قباء ذو طاق واحد ، معرب .
(٩) صفة الصفوة ٢ : ١١٩ .
(١٠) تزهر : تضيء وتتلألأ .
(١١) صفة الصفوة ٢ : ١١٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٢ .
(١٢) المصدر ذاته ٢ : ١٢٠ .

فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً ؛ فلما رجع عمر وجد ريح التفاح فقال : يا فاطمة ، هل أتيت شيئاً من هذا الفيء ؟ قالت : لا . وقصّت عليه القصة فقال: والله لقد انتزعتها من ابني لكأنما نزعتها عن قلبي ، ولكن كرهت أن أضيع نصيبي من الله عزّ وجلّ بتفاحةٍ من فيء المسلمين(١٣) .

وعن شيخ من أهل الشام قال : لما مات عمر بن عبد العزيز كان استودع مولىً له سفَطاً(١٤) يكون عنده ، فجاؤوه فقالوا : السفط الذي كان استودعك عمر ؟ قال : ما لكم فيه خيرٌ ؛ فأبوا حتى رفعوا ذلك إلى يزيد بن عبد الملك ، فدعا بالسفط ، ودعا بني أمية وقال : خيركم هذا ، فقد وجدنا له سفطاً وديعة قد استودعها . ففتحوه فإذا فيه مقطّعات من مُسوح كان يلبسها بالليل(١٥) .

وعن عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك قال : بكى عمر بن عبد العزيز فبكت فاطمة ، فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء . فلما تجلّت عنهم العبرة قالت له فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين ، ممّ بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله عزّ وجلّ ، فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ؛ ثم صرخ وغشي عليه(١٦) .

وعن يونس بن أبي شبيب قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وإن حُجْزَةَ إزاره لغائبةٌ في عُكَنه(١٧) . ثم رأيته بعد أن استُخلف ، ولو شئت أن أعُدَّ أضلاعه من غير أن أمسّها لفعلت(١٨) .

---

(١٣) المصدر نفسه ٢ : ١٢٠ .
(١٤) السفط : وعاء كالقفة أو الجوالق .
(١٥) صفة الصفوة ٢ : ١٢٠ و١٢١ .
(١٦) نفس المصدر السابق ٢ : ١٢١ .
(١٧) العكن : كناية عن السمنة ، وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .
(١٨) صفة الصفوة ٢ : ١١٩ .

وعن زياد بن أبي زياد المديني قال : أرسلني ابن عامر بن أبي ربيعة إلى عمر بن عبد العزيز في حوائج له ، فدخلت عليه وعنده كاتب يكتب فقلت : السلام عليكم . فقال : وعليك السلام . ثم انتبهت فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال : يا ابن أبي زياد ، إننا لسنا ننكر الأولى التي قلت . والكاتب يقرأ عليه مظالم جاءت من البصرة . فقال لي : اجلس . فجلست على أُسْكُفَّة الباب وهو يقرأ وعمر يتنفس صعداً[١٩] . فلما فرغ أخرج مَن كان في البيت حتى وصيفاً كان فيه ، ثم قام يمشي إليّ حتى جلس بين يديّ ، ووضع يديه على ركبتي ثم قال : يا بن أبي زياد استدفأتُ في مِدْرعتك[٢٠] هذه ـ قال : وعليّ مِدرعةٌ من صوف ـ واسترحت مما نحن فيه . ثم سألني عن صُلحاء أهل المدينة رجالهم ونسائهم ، فما ترك منهم أحداً إلا سألني عنه ، وسألني عن أمورٍ كان أمر بها بالمدينة فأخبرته ؛ ثم قال لي : يا ابن أبي زياد ، ألا ترى ما وقعت فيه ؟ قال : قلت : أبشر يا أمير المؤمنين ، إني أرجو لك خيراً . قال : هيهات هيهات . قال : ثم بكى حتى جعلتُ أرثي له فقلت : يا أمير المؤمنين ، بعض ما تصنع ، فإني أرجو لك خيراً . قال : هيهات هيهات ، أشتُم ولا أُشتَم ، وأضرِب ولا أُضرَب ، وأوذي ولا أوذى . ثم بكى حتى جعلت أرثي له . فأقمتِ حتى قضى حوائجي ، ثم أخرج من تحت فراشه عشرين ديناراً فقال : استعن بهذه فإنه لو كان لك في الفيء حقٌّ أعطيناك حقك ، إنما أنت عبد . فأبيت أن آخذها فقال : إنما هي من نفقتي ، فلم يزل بي حتى أخذتها ؛ وكتب إلى مولاي يسأله أن يبيعني منه ، فأبى وأعتقني[٢١] .

عن هاشم قال : لما كانت الصَّرعة التي هلك فيها عمر دخل عليه مسلمة ابن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين ، إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال

(١٩) صعداً : شديداً .
(٢٠) المدرعة : العباءة .
(٢١) صفة الصفوة٢ : ١٢٢ .

وتركتهم عَيْلَةً(٢٢) لا شيء لهم ، فلو وصّيتَ بهم إليّ أو إلى نُظرائي من أهل بيتك .

قال : فقال : أسندوني ثم قال : أما قولك إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله إني ما منعتهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم ما ليس لهم ! وأما قولك لو أوصيتُ بهم ، فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . بنيّ أحدُ الرجلين ، إما رجل يتّقي الله فسيجعل الله له مخرجاً ، وإما رجل مُكِبٌّ على المعاصي فإني لم أكن أقوّيه على معاصي الله .

ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكراً قال : فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسي الفتية الذي تركتهم عيلةً لا شيء لهم ، فإني بحمد الله قد تركتهم بخير . أي بنيّ ، إن أباكم مثل بين أمرين : بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحبّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار . قوموا عصمكم الله(٢٣) .

وعن ليث بن أبي رُقيّة عن عمر أنه لما كان مرضه الذي قُبض فيه قال : أجلسوني فأجلسوه . ثم قال : أنا الذي أمرتَني فقصّرتُ ، ونهيتني فعصيتُ ، ولكن لا إله إلا الله . ثم رفع رأسه وأحدّ النظر . فقالوا له : إنك لتنظر نظراً شديداً . فقال : إني لأرى حضرةً ما هُم بأنسٍ ولا جانٍ ؛ ثم قُبض رضي الله عنه(٢٤) .

وعن عبيد الله بن محمد التميمي قال: سمعت أبي وغيره يحدث أن عمر ابن عبد العزيز لما ولي منع قرابته ما كان يجري عليهم ، وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم . فشكوا إلى عمته أم عمر فدخلت فقالت : إن قرابتك

---

(٢٢) العيلة : الكثير العيال .

(٢٣) صفة الصفوة ٢ : ١٢٦ .

(٢٤) المصدر نفسه ٢ : ١٢٦ .

يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خيرَ غيرك . قال: منعتهم حقاً وما أخذت منهم حقاً . فقالت : إني رأيتهم يتكلمون ، وإني أخاف أن يهيّجوا عليك يوماً عصيباً . فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا وقاني الله شره . قال : ودعا بدينار وخَبَث(٢٥) ومجمرة ، فألقى الدينار في النار وجعل ينفخ على النار حتى إذا احمرّ تناوله بشيء فألقاه على الخبث فَنَشّ(٢٦) فقال : أي عمة ، أما تأوين(٢٧) لابن أخيك من مثل هذا ؟ فقامت فخرجت على قرابته فقالت : تزوّجون إلى آل عمر ، فإذا نزعوا الشُّبَهَ جزعتم ؟ اصبروا له(٢٨) .

وكتب وهب بن منبه إلى عمر أنه فقد من بيت المال ديناراً أو بضعة دنانير . فكتب إليه عمر : إني لا أتهم دينك وأمانتك ، ولكني أتهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم ! ثم أمره بردّ ما فقد من بيت المال فردّه من خاصة ماله(٢٩) .

ولما حمل مولى له رجلاً على خيل البريد بغير إذنه دعاه فقال له : لا تبرح حتى تقوّمه وتضعه في بيت المال(٣٠) .

وطلب ابن لعمر أن يزوّجه اويُصدِق عليه من بيت المال ، وكان لابنه هذا امرأة أخرى تزوجها من قبل فغضب عمر حين طلب ابنه إليه ذلك وكتب إليه : لعمر الله ! لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين . وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها ، فلا أعرفنّ ما

---

(٢٥) الخبث : ما نفاه الكير ، وكل ما لا خير فيه .
(٢٦) نشّ : صوّت .
(٢٧) أوى له : رحمه ورقّ له .
(٢٨) صفة الصفوة ٢ : ١٢٣ .
(٢٩) ابن الجوزي ص٨٥ .
(٣٠) الخراج لأبي يوسف ص١٨٦ .

كتبت ! وانـظر إلى ما قبلك من نحـاسنا ومتـاعنا ، واستعن بثمنـه على ما بـدا لك[٣١] .

وبينما عمر يفعل ذلك مع ابنه ، يكتب الى زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة فيقول : كتبت تذكر أنه اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند ، فأعط كـل من كـان عليـه دين في غيـر فســاد ، أو فزوّج من لم يقدر على نقـد . والسلام[٣٢] .

وقدمت إلى عمر امرأة من العراق ، فلما صارت إلى بابه قالت : هل على أميـر المؤمنين حاجب ؟ فقـالوا : لا ، لجي إن أحببت ، فـدخلت المرأة على زوجته فاطمة وفي يدها قطن تعالجه ، فسلّمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تـر في البيت شيئاً لـه بـال ، فقـالت : إنمـا جئت لأعمـر بيتي من هـذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : إنما خرّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك .

وأقبل عمر حتى دخل الدار ، ثم أقبل على المرأة فقال : ما حـاجتك ؟ قـالت : امرأة من أهـل العراق ، لي خمس بنـات كُسُل كُسُـد قد رغب عنهنّ الأزواج لفقرهنّ فجئتك ابتغي حسن نظرك لهنّ . فأخذ الدواة والقرطاس وكتب إلى والي العراق فقال : سمّي كـبراهن ، فسمّتها ففرض لها ، ثم فـرض للثانيـة والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله فلما فرض للأربـع استفزّها الفرح فدعت لـه دون أن تحمد الله ، فرفع يده وقال : قد كنا نفرض لهنّ حين كنت تولين الحمد أهله ، فمـري هؤلاء الأربع أن يفضن على هـذه الخامسـة مما أعـطاهنّ الله ، فمضت المرأة بالكتاب إلى العراق[٣٣] .

وقعد عمر يوماً لحوائج الناس ، ولما أمسى ولم يقضها وصله بليلته ، وقد

---

(٣١) الخليفة الزاهد ص١٥٨ .
(٣٢) ابن عبد الحكم ص٦٧ و١٢٨ .
(٣٣) الخليفة الزاهد ص١٧٦ .

أمسى يوماً وقد فرغ من حوائج الناس ، فدعا بمصباح كان يستصبح به من ماله ، ثم صلى ركعتين ، ثم أقعى واضعاً يده تحت ذقنه تسيل دموعه على خده ، ولم يزل كذلك حتى برق الفجر فأصبح فائماً .

ورأت فاطمة بنت عبد الملك ذلك منه فقالت له : يا أمير المؤمنين ، لشيء ما كان منك ما رأيت الليلة ؟ قال : أجل ! إني وجدتني وُليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها فذكرت الغريب القانع الضائع والفقير المحتاج والأسير المقهور وأشباههم في أطراف الأرض ، فعلمت أن الله تعالى سائلني عنهم ، وأن محمداً (ص) حجيجي فيهم ، فخفت ألا يثبت لي عند الله عذر ، ولا تقوم لي مع محمد حجة ، فخفت على نفسي[٣٤] !

قال علي بن جذيمة : رأيت عمر بن عبد العزيز في المدينة وهو من أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس في مشيته . ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان[٣٥] .

لقد وجم عمر منذ ولي الخلافة وأمسك عن المزاح وعاد يراه حديثاً خسيساً يورث الضغائن . وصام الاثنين والخميس والعشر وعرفة وعاشوراء ، ولم يدع المصحف إلا نظر فيه كل يوم ولو قليلاً . إنه لم يفرط في التعبّد ، ولكنه داوم وكان في صلاته أشبه برسول الله (ص) .

وقد حدث أبو قلابة قال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله (ص) عن صلاة رسول الله في ركوعه وسجوده أنه كان يصلي نحواً مما رأى عمر بن عبد العزيز يصلي .

ومرّ عمر يوماً بزوجته فاطمة فضرب على كتفها وقال : يا فاطمة ، لنحن

---

(٣٤) الخليفة الزاهد ص١٥٧ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٥ .
(٣٥) ابن الجوزي ص٣٢ .

ليالي دابق أنعم منا اليوم ! فقالت له : والله ما كنت على ذلك أقدر منك اليوم ! فأدبر عنها وهو يقول : يا فاطمة ، إني أخاف النار ! يا فاطمة إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم[٣٦] .

وكانت فاطمة بنت الحسين بن علي تثني عليه وتقول : لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعهده إلى أحد[٣٧] .

ولما مات عمر قعد مسلمة على قبره فقال : أما والله ما أمِنْتُ الرِّقَّ حتى رأيت هذا القبر[٣٨] .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئاً ، ولا يجري على نفسه من الفيء درهماً . وكان عمر بن الخطاب يجري على نفسه من ذلك درهمين في كل يوم ؛ فقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أخذتَ ما كان يأخذ عمر ابن الخطاب ؟ فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالي يغنيني[٣٩] .

وقال رباح بن عبيدة : اشتريت لعمر قبل الخلافة مِطرفاً بخمسمائة ، فاستخشنه وقال : لقد اشتريته خشناً جداً ! واشتريت له بعد الخلافة كساء بثمانية دراهم ، فاستلانه وقال : لقد اشتريته ليّناً جداً ![٤٠] .

وكان لعمر غلام يقال له درهم يحتطب له ، فقال له يوماً : ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : وما يقولون ؟ الناس كلهم بخير ، وأنا وأنت بشر ! قال : وكيف ذلك ؟ قال إني عهدتك قبل الخلافة عطراً ، لبّاساً ، فارِه المركب ، طيِّب

---

(٣٦) ابن عبد الحكم ص٤٧ .
(٣٧) الكامل في التاريخ ٥ : ٦٥ .
(٣٨) العقد الفريد ٥ : ١٧٣ .
(٣٩) العقد الفريد ٥ : ٢٢ و١٦٩ .
(٤٠) المصدر نفسه ٥ : ١٧٠ .

الطعام ؛ فلما وليتَ رجوتُ أن أستريح وأتخلّص ، فزاد عملي شدّة ، وصرتَ أنتَ في بلاء ! قال : فأنت حرٌّ ، فاذهب عني ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجاً(٤١) .

وقال ميمون بن مهران : كنت عند عمر ، فكثر بكاؤه ومسألته ربَّه الموتَ ، فقلت : لم تسأل الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ؛ أحيا بك سُنناً ، وأمات بك بدعاً ؟ قال : أفلا أكون مثل العبد الصالح أقرّ الله عينه وجمع له أمره قال : ﴿ **ربِّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفّني مُسلماً وألحقني بالصَّالحين** ﴾(٤٢) .

وكان رحمه الله يجيب من يسأله كيف أصبحت : أصبحت بطيناً بطيئاً متلوّثاً في الخطايا أتمنى على الله الأماني(٤٣) .

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز وعليه رَيطة من رياط مصر فقال : بكم أخذت هذه يا أبا سعيد ؟ فقال : بكذا وكذا ، قال : فلو نقصت من ثمنها شيئاً أكان ناقصاً من شرفك ؟ قال : لا ، قال : فلو زِدتَ في ثمنها شيئاً أكان زائداً في شرفك ؟ قال : لا ، قال : فاعلم يا مسلمة أن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجِدّة ، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة ، وأفضل اللِّين ما كان بعد الولاية(٤٤) .

---

(٤١) المصدر نفسه ٥ : ١٧٠ .
(٤٢) سورة يوسف ـ الآية ١٠١ .
(٤٣) ابن الجوزي ص١٤٧ و١٥٠ وابن عبد الحكم ٤٤ و٥٠ .
(٤٤) الأمالي ٢ : ٢٨٢ والعقد الفريد ٥ : ١٧٠ .



الفصل الثامن
أدب عمر عفوه وصاياه



أدب عمر

يروى أن عمر بن عبد العزيز كان يدخل إليه سالم مولى بني مخزوم ، وقالوا بل زياد ، وكان عمر أراد شراءه وعتقه فأعتقه مواليه ، وكان عمر يسميه أخي في الله ، فكان إذا دخل وعمر في صدر مجلسه تنحّى عن الصدر . فيقال له في ذلك فيقول : إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس .

وهمّ السراج ليلةً بأن يخمد فوثب إليه رجاء بن حيوة ليصلحه فأقسم عليه عمر فجلس ، ثم قام عمر فأصلحه ، فقال له رجاء : أتقوم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز .

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : قال لي رجاء بن حيوة : ما رأيت أكرم أدباً ، ولا أكرم عشرة من أبيك ؛ سَمَرت عنده ليلةً ، فبينا نحن كذلك إذ عشي المصباح ونام الغلام . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد عشي المصباح ونام الغلام ، فلو أذنت لي أصلحتُه ! فقال : إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه ، ثم حطّ رداءه عن منكبيه ، وقام إلى الذبّة فصبّ من الزيت في المصباح ، وأشخص الفتيلة ، ثم رجع . وأخذ رداءه وقال : قمت وأنا عمر

ورجعت وأنا عمر[١] .

وقال صاحب حرس عمر بن عبد العزيز : خرج عمر في يوم عيد وعليه قميص كتّان وعمامة على قلنسوة لاطئة ، فقمتُ إليه وسلّمت عليه ، فقال : مه ، أنا واحد وأنتم جماعة ؛ السلامُ عليّ والردُّ عليكم . ثم سلّم ورددنا عليه ، ومشى فمشينا معه إلى المسجد[٢] .

ودخل خالد بن عبد الله القَسريّ على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة فقال : يا أمير المؤمنين ، مَن تكون الخلافة قد زانته فأنتَ قد زنْتها ، ومَن تكون شرّفته فأنتَ قد شرّفتها ، وأنت كما قال الشاعر :

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسنَ وُجُوهٍ كانَ للدُّرِّ حُسنُ وَجْهِكَ زَيْنا

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أُعطِيَ صاحبُكم مقُولاً ولم يُعطَ مَعْقولاً[٣] .

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز ما يكره ، فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستفزّني الشيطان بعزّة السلطان ، فأنال منك اليوم ما تنالُه مني غداً ، انصرِف إذا شئت[٤] .

وقال عمر : ما كذبتُ منذ علمتُ أن الكذب يضرّ أهله[٥] .

ويروى عن عمر أنه قال لمؤدبه : كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤدبني ؟ فقال أحسن طاعة .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٣٥ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٢٤٠ .
(٣) المصدر السابق ٢ : ١٠ .
(٤) المصدر السابق ٢ : ١٢٠ .
(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٢ .

قال : فأطعني الآن كما كنت أطيعك إذ ذاك ، خُذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك[٦] .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس[٧] .

وقال أيضاً : إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد[٨] .

عفو عمر

وحدّث أبو العباس عن ابن عائشة قال : وقف وفد بباب عمر بن عبد العزيز ، فأبطأ عليهم إذنه ، فقال أحدهم : ما يصلح هذا أن يكون عبداً للحجاج ، فنمت الكلمة إليه ، فأذِن لهم فدخلوا ، فقال : أيكم القائل كذا وكذا ؟ قال : فأَرَمُّوا ، فقال : حقّاً لتقولُنّ ؛ فقال رجل من القوم : أنا قلتها وما ظننتها تبلغ ما بلغت . قال : فإن الله يغفر لك ، كيف ذكرت الحجاج وما كانت له دنيا ولا آخرة ! فهلا فضّلتَ عليّ زياداً الذي جمع لهم كما نجمع الذرّة وحاطهم كما تحوط الأمُّ البَرَّة[٩] !

وحدث علي بن عبد الله قال : دخل قومٌ على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فكلَّمهم فأغلظوا له ، فغضب . فقال له ابنه عبد الملك : وما يغضبك يا أمير المؤمنين وإنما يحبسك أن تأمر فتطاع ؟ فقال : أما غضبتَ أنت يا عبد الملك ؟ قال : بلى والله ، ولكن ما ينفعني حلمي إذا لم أَرُدّه على

---

(٦) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٢١٤ .
(٧) البيان والتبيين ٣ : ٨٤ .
(٨) هو زياد بن أبي زياد المدني .
(٩) الأمالي ٣ : ٢١٦ .

غضبي فيسكن ، وأنشد :

وما الحلمُ إلا ردُّكَ الغيظَ في الحشا وصفحُك بالمعروف والصَّدرُ واغرُ

ترى المجد والأحلام فينا فما ترى سفيهاً هفا إلا وآخرُ زاجرُ(١٠)

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بني أُمية كان له أخوال في بني مُرّة : قبّح الله شَبهاً غلبَ عليك من بني مُرّة ، فبلغ ذلك عقيل بن عُلَّفه ، فأقبل إليه فقال له قبل أن يبتدئه بالسلام : بلغني يا أمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بني عمك له أخوال في بني مُرّة ، فقلت : قبحّ الله شَبهاً غلب عليك من بني مرة ! وأنا أقول : قبّح الله ألأم الطَّرفين ، ثم انصرف .

فقال عمر بن عبد العزيز : من رأى أعجب من هذا الشيخ الذي أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتمنا ثم انصرف ! فقال له رجل من بني مُرّة : والله يا أمير المؤمنين ما شتمك وما شتم إلا نفسَه ، نحن والله ألأمُ الطّرفين(١١) .

الوصايا

دخل أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أبا جعفر أوصني ، قال : أوصيك أن تتخّذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً ، وكبيرهم أباً ، فارحم ولدك ، وصِلْ أخاك ، وبرّ أباك ؛ وإذا صنعت معروفاً فَرَبِّه(١٢)(١٣) .

وحدّث عبد الله بن محمد عن المدائني قال : كتب الحسن إلى عمر بن

---

(١٠) المصدر السابق ٣ : ٢١٧ .
(١١) العقد الفريد ٢ : ٥٣ .
(١٢) ربّه : أدمه .
(١٣) الأمالي ٢ : ٣٠٨ .

عبد العزيز ـ رحمة الله عليهما ـ : كُن كالمُداوي جرحه ، صبر على شدّة الدواء مخافة طول البلاء[١٤] .

وقال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : لا تتخذنّ وزيراً إلا عالماً ، ولا أميناً إلا بالجميل معروفاً ، وبالمعروف موصوفاً ؛ فإنهم شركاؤك في أمانتك ، وأعوانك على أمورك ؛ فإن صلحوا أصلحوا ، وإن فَسَدوا أفسدوا[١٥] .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ؛ فكأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل ، والسلام .

وكتب إليه عمر : أما بعد ؛ فكأن آخر من كُتبَ عليه الموتُ قد مات ، والسلام[١٦] .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : اجمع لي أمر الدنيا ، وصف لي أمر الآخرة فكتب إليه : إنما الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط ؛ ونحن في أضغاث أحلام . من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضلّ ، ومن حَلُم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهِم ، ومن فهم علم ، ومن علم عمل ، فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع ، وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك . واعلم أن أفضل الأعمال ما أُكرِهت النفوس عليه[١٧] .

وأمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل ، فقال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد فعل ما تُحبُّ من الظفر ، فافعل ما يحبّه من

---

(١٤) الأمالي ٢ : ٤٤ .
(١٥) نفس المصدر ٢ : ٢٩ .
(١٦) العقد الفريد ٣ : ٨٥ .
(١٧) نفس المصدر ٣ : ٨٧ .

العفو[١٨] .

لما استُخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب فقال لهما : أشيرا عليّ ، فقال له سالم : اجعل الناسَ أباً وأخاً وإبناً ، فَبرَّ أباك واحفظ أخاك ، وارحم ابنك .

وقال محمد بن كعب : أحبب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ، واعلم أنك أول خليفة يموت[١٩] .

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : يا أبت ، ما لـك لا تَنفُذُ في الأمور ، فوالله لا أبالي في الحق لـو غَلَت بي وبك القُـدور . قال لـه عمر : لا تعجل يا بني ، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكون فتنة[٢٠] .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرّاح : أنه بلغني أن رسول الله (ص) كان إذا بعث جيشاً أو سريَّةً قال : أغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله لا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا امرأةً ولا وليداً ، فإذا بعثتَ جيشاً أو سريّة فمُرهم بذلك[٢١] .

وعن علي بن حمّاد قال : كتب عمـر بن عبد العـزيز ـ رحمـه الله ـ إلى رجل : اتّق الدنيا فإن مسّها ليِّن ، وارفض نعيمها لقلّة ما يتبعك منه ، واترك ما يُعجبك منها لسرعة مفارقتها[٢٢] .

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعضُ عماله يستأذنه في تحصين مدينته .

---

(١٨) نفس المصدر ٢ : ٥٠ .
(١٩) نفس المصدر ١ : ٣٠ .
(٢٠) العقد الفريد ١ : ٣٠ .
(٢١) العقد الفريد ١ : ٩١ .
(٢٢) الأمالي ٢ : ٤٥ .

فكتب إليه عمر : حَصِّنْها بالعدل ونَقِّ طُرُقَها من الظلم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة : أما بعد ، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك[٢٣] .

ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال لمؤدبه : كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤدبني ؟ فقال : أحسن طاعة . قال : فأطعني الآن كما كنت أطيعك إذ ذاك . خُذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ومن ثوبك حتى تبدو عِقباك[٢٤] .

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضته التي مات فيها فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : فيم أوصي ؟ فوالله ما لي من مال . فقال : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت . فقال : أوتقبل ؟ قال : نعم . قال : تُردّ على من أُخذت منه ظلماً . فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله ، لقد ألنتَ منّا قلوباً قاسية ، وأبقيتَ لنا في الصالحين ذكراً[٢٥] .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حيوة : أما بعد ، فإنه من أكثر ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عملٌ قلَّ كلامُه إلا فيما ينفعه[٢٦] .

واستأذن رياح بن عبيدة عمر ليرى أهله وضيعته بالعراق . فلما كان اليوم الذي ودّعه فيه قال له : يا أمير المؤمنين ، حاجتَك ، أوصني بها ، فقال له عمر : حاجتي أن تسأل عن أهل العراق ، وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم .

---

(٢٣) العقد الفريد ١ : ٣٠ .
(٢٤) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٢١٤ .
(٢٥) المصدر السابق ١ : ١٣٩ و١٤٠ .
(٢٦) العقد الفريد ٣ : ١٨٦ و١٢١ .

فلما قدم رياح العراق سأل الرعية ، فأخبرته بالخير ، فلما رجع إلى عمر سلّم عليه وأخبره بحسن سيرة الولاة في العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر : الحمد لله على ذلك ! لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبداً[٢٧] .

---

(٢٧) ابن الجوزي ص٩٧ .



الفصل التاسع
عمر والخطابة

* إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نُصُب المصائب ، مع كل جرعة شرق ، وفي كل اكلة غصص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمّر معمَّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم ، فأين المهرب مما هو كائن ! وإنما تتقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه !

* لا يطولنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم ؛ فإنه ما بُسط أمل مَن لا يدري لعله يصبح بعد إمسائه أو يمسي بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا .



الخطابة فن يرمي إلى الإقناع والتأثير ، وهي من الوسائل التي اعتمدت عبر العصور المختلفة لإقناع الناس بصواب قضية أو بخطأ أخرى ، مستعينة على ذلك بالأدلة والبراهين، وصحة التعليل والتحليل لمشكلة معينة .

ومن الطبيعي أن يرقى هذا الفن ويزدهر إذا توفّرت العوامل المهيئة بدءاً باضطراب الحياة وكثرة مشكلاتها ، وانتهاء بالسعي إلى حياة أفضل .

من هنا نستطيع القول أن الخطابة في الجاهلية كانت أقرب إلى البساطة ، يغلب عليها السجع ، وتتناثر أفكارها مفتقرة إلى وحدة فنية تنتظمها .

ومع عصر صدر الإسلام أصبحت الخطابة الوسيلة الوحيدة للاتصال بالناس ودعوتهم إلى اعتناق الدين الجديد ، فضلاً عن جعلها فرضاً ، بحيث لا تقوم صلاة الجمعة ما لم يخطب فيها خطبتان تتناولان الأمور الدينية والشؤون الاجتماعية .

أما في العصر الأموي فقد بلغت الخطابة أوج ازدهارها ، وسيطرت على سائر الفنون وطبعتها بطابعها ؛ لكنها اتجهت نحو القسوة والتشدد في معاملة المخاطبين . كما اتجهت نحو الاستبداد وكبت الحريات . فأضحت خطب ذلك العصر أوامر بُتّ في شأنها وليس للناس حق المناقشة أو الاعتراض .

وبعد أن كان أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، يخاطب الناس بلطف ولين ، ويقول لهم يوم تولّى الخلافة : « أيها الناس ، لقد وليت عليكم ولست بخيركم . . من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . . . » .

بعد أن كان أول الخلفاء الراشدين يخاطب الناس بمثل هذه اللهجة ، أصبح عتبة بن أبي سفيان والي مصر يخاطب أهلها ، حين بلغه خبر أغضبه ، فيقول : « يا ألأم أنوف رُكّبت بين أعين ، إنما قلّمت أظافري عنكم ليلين مسّي إيّاكم وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم عائداً عليكم . فوالله لأقطعنّ بطون السياط على ظهوركم ، ولن نبخل عليكم بالعقوبة ما جدتم علينا بالمعصية . . . » .

لعلّ هذا القول يعدّ مألوفاً عندما نسمع ما انهال به الحجاج بن يوسف على أهل العراق من لاذع القول وشديده ، مثيراً الرعب في النفوس ، وباثّاً الرهبة والهلع بقوله : « أيها الناس ، من أعياه داؤه فعندي دواؤه ، ومن استطال أجله فعليّ أن أعجّله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضي عمره قصّرت عليه باقيه . . . إلى أن يقول: والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

لا غرابة في هذا الكلام ما دام الخليفة عبد الملك بن مروان يقف قائلاً في الجماهير : « أيها الناس ، من قال منكم اتقوا الله ، ضربنا عنقه » .

هذه اللمحة السريعة تشير إلى ما كانت عليه الخطابة في العصر الأموي ؛ حتى إذا قيّض الله للخلافة عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، عادت الخطابة إلى ما كانت عليه في عصر الراشدين من مخاطبة الناس بالرفق واللين ، وطلب مشاركتهم في تقرير المصير .

فمنذ اليوم الأول لخلافته يقف عمر بن عبد العزيز بين الناس قائلاً : « يا أيها الناس ، إني قد ابتُليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبةٍ ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم » .

ويصيح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فَلِ أمرنا باليمن والبركة .

رحم الله عمر بن عبد العزيز ، لقد أعاد للناس طمأنينتهم ، واشترى منهم أنفسهم حين راح يذكّر بتقوى الله ، والعمل للآخرة ، وحسن الاستعداد قبل نزول البلاء . . . مردداً ما قاله أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه : « يا أيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » .

لقد رقّق عمر بن عبد العزيز قلوب الناس ، حين أخذ بيدهم ، معرضاً عن الدنيا ، داعياً إلى التفكّر ، ونصح النفس ، ومراقبة الربّ ، واستثقال الذنب : « أعوذ بالله أن آمركم بما أنهي عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتظهر عيلتي ، وتبدو مسكنتي ، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق » .

رحم الله عمر بن عبد العزيز ، فقد كان نموذجاً فذّاً للإمام الزاهد العابد ، ورمزاً فريداً للحاكم العادل الذي لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يتورّع عن مقولة الحق والصدق جهاراً : « ألا وإنكم تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم » .

رحم الله عمر بن عبد العزيز لقد كان المثل الذي يُحتذى ، والأمل الذي يُرتجى . فما نطق تزلّفاً ، ولا جاراه أحدٌ رفعةً وتعفّفاً ، فقد أخلص النيّة وعرف السبيل ، فكان صادقاً مع ربّه ، لاهجاً بحمده مدلاًّ على طاعته ، زاجراً النفس عن معصيته .

« وأيم الله إني لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم حاجة يتّسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحد منكم إلا وودت أن يده مع يدي ولُحمتي الذين يَلُونني ، حتى يستوي عيشنا وعيشكم » .

« وأيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ؛ ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنّة عادلة ، دلّ فيها على طاعته ، ونهى عن معصيته » .

وبالعودة إلى خطب عمر بن عبد العزيز نرى أنها قد تشكّل نموذجاً فذّاً ، واتجاهاً جديداً ينحو منحى سياسة الخلفاء الراشدين من حيث مخاطبة الناس بالرفق واللين ، وحثهم على اتباع أوامر الدين ونواهيه . لكن هذه السياسة لم تعمّر طويلاً فقد عمد يزيد بن عبد الملك إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز ممّا لم يوافق هواه فردّه ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً عاجلاً .

لعل هذه الأمور تصبح أكثر واقعية إذا ما تذكرنا أن عمر بن عبد العزيز قيل له إبان احتضاره : اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة ، فقال : بماذا أوصيه ؟ إنه من بني عبد الملك . ثم كتب إليه : أما بعد فاتقِ يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تُقال العثرة ولا تقدر على الرجعة ، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك وتصير إلى مَن لا يعذرك ، والسلام .

هذا ما أُثر عن عمر ، فمنذ أن وُلي المدينة في سنة سبع وثمانين نزل دار مروان ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من الفقهاء ، فدخلوا عليه ، فقال لهم :

إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحقّ ، لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدّى أو بلغكم عن عاملٍ لي ظُلامة فأُحرّج الله على مَنْ بلغه ذلك إلا بلّغني ، فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا .

كانت خطب عمر بن عبد العزيز تثير القلوب وترقق العواطف . فقد

خطب مرة بالقرآن فقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾[1] فارتج المسجد كله بالبكاء حتى ظُنت جدران المسجد كأنما تبكي معه ومع الناس[2] .

حتى إذا رأى الناس قد أخذوا بقوله وافتتنوا ببلاغته قطع كلامه مخافة أن يطغى رنين الكلام على معناه ، ومخافة المباهاة[3] .

ومع أنه كان شديد التحفظ في كلامه ، عظيم الحرص على الحق فيه حتى قيل : ما رؤي رجل أشد تحفظاً في منطقه من عمر بن عبد العزيز[4] .

مع ذلك كله كان يقطع كلامه إذا افتتن به الناس . وقد خطب يوم عيد فأرقّ كلامه فأبكى الناس جميعاً يميناً وشمالاً ، ثم قطع كلامه والناس ينتظرون أن يكمل ، ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلّمتَ الناس بما أرقّ قلوبهم وأبكاهم ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه ، فقال : يا رجاء ، إني أكره المباهاة[5] .

وكان عمر صادق القول حسن الأداء حتى أنه ليفتن المسافر ويقطع عليه سفره رغبة في سماعه .

ولقد سمعه رجل يقال له عدي بن الفضيل ، وكان ممن يعجبه القول البليغ والأداء الحسن . وكان عدي مسافراً فأقام وما زال مقيماً شهراً ما به إلا انتظار الجمعة أو انتظار الفرصة لاستماع كلامه[6] .

وقد اشتهرت لعمر كلمات صار لهنّ مقام الحكمة وبليغ الأثر . ومن ذلك

---

(١) سورة التكوير ـ الآية١ .
(٢) الخليفة الزاهد ص١٩٠ .
(٣) المصدر السابق ١٩٠ .
(٤) المصدر السابق ١٩٠ .
(٥) ابن الجوزي ص١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٥ .
(٦) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ١ : ٩١ .

قوله : ما بسط أمل لمن لا يدري ، لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا .

وقوله أيضاً : إنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها .

وقوله : إن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حيّ لمعرق في الموت . . .
وكان عمر حاضر البديهة سريع الخاطر ، فقد قال له رجل : نحن بخير ما أبقاك الله ! فقال له : أنت بخير ما اتقيت الله[٧] !

لقد آمن عمر بفعل البلاغة في نفوس الناس ، وبسيطرة القول على القلوب ، فاختطّ طريقه غير هيّاب ولا وجل تاركاً في النفوس أثراً ، وفي القلوب شغفاً .

فعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : لما دفن عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجّة فقال : ما هذه ؟ فقيل هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قُرّبت إليك لتركبها . فقال : ما لي ولها ؟ نحّوها عني ، قرّبوا إلي بغلتي فقُرِّبت إليه بغلته فركبها ، فجاءه صاحب الشُرَط يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحّ عني ما لي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال : يا أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فَلِ أمرنا باليمن والبركة . فلما رأى الأصوات قد

---

(٧) العقد الفريد ٤ : ٢٠٨ .

هـدأت ورضي به النـاس جميعاً حمـد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص) وقال :

أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء ، ليس من تقوى الله عز وجل خلف ، فاعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يُصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباً حيّاً لَمعرِق في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيّها ، ولا في كتابها ؛ إنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً .

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال :

يا أيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم[٨] .

وقال أبو بشر الخراساني : خطب عمر بن عبد العزيز الناس حين استخلف ، فقال : أيها الناس ، والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سرٍّ ولا علانية ، فمن كان كارهاً لشيء مما وليتُه فالآن .

فقال سعيد بن عبد الملك : ذلك أسرع فيما نكره أتريد أن نختلف ويضرب بعضنا بعضاً ؟ قال رجل : سبحان الله ! وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ولم يقولوا هذا ؛ ويقوله عمر[٩] .

لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز كان أول خطبة خطب الناس

---

(٨) صفة الصفوة ٢ : ١١٤ و١١٥ .
(٩) العقد الفريد ٤ : ٤٣٣ .

بها أن قال : أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت وبقيت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيهـا نُصُب المصائب مـع كل جـرعة شَـرَقٌ ، وفي كل أكلة غصص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله(١٠) .

قال العتبي : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :

أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلُح لكم علانيتكم ، وأصلحوا آخرتكم تصلح دنياكم وإن امرءاً ليس بينه وبين آدم أبٌ حيٌّ لَمُعْرِقٌ في الموت(١١) .

وجاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير : « لمّا وليَ عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وكانت أوّل خطبـة خطبهـا ثمّ قال : أيّهـا الناس مَنْ صحبنَا فليصحبنا بخمس وإلاّ فلا يقـربنا : يـرفع إلينـا حاجـة مَنْ لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلّنا من الخيـر على ما نهتـدي إليه ، ولا يغتابنّ أحداً ، ولا يعترض في ما لا يعنيه . فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزُّهّاد وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله . قال : فلمّا ولي الخلافة أحضر قريشاً ووجوه الناس فقال لهم : إنّ فَدَكَ كانت بيد رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، فكان يضعها حيث أراه الله ، ثمّ وليَها أبو بكر كذلك وعمر كذلك ، ثمّ أقطعها مروان ، ثمّ إنّها صـارت إليّ ولم تكن من مالي أعود منها عليَّ ، وإني أُشهدكم أنّي قد رددتُها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ؛ قال : فانقطعت ظهور الناس ويئسوا من الظلم(١٢) .

---

(١٠) مروج الذهب ٣ : ١٩٤ .

(١١) العقد الفريد ٤ : ١٥٥ .

(١٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٤ .

حدّث الزنادي قال : يقال إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تكلم بهذا الكلام في خطبته :

ما الجزع مما لا بدّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرجى ، وما الحيلة فيما سيزول ! وإنما الشيء من أصله؛ فقد مضت قبلنا أصولٌ نحن فروعها ، فما بقاءُ فرعٍ بعد أصله ! إنما الناس في الدنيا أغراضٌ تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهبٌ للمصائب ، مع كل جرعة شَرَق ، وفي كل أكلة غصص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يُعَمَّر مُعَمَّر يوماً من عمره إلا بهدم آخرَ من أجله ، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم ؛ فأين المهرب مما هو كائن ! وإنما نتقلَّبُ في قُدرة الطالب ، فما أصغر المصيبةَ اليوم مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه ! والسلام[١٣] .

ومن خطبه أيضاً :

إن لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزوّدوا لسفركم من دنياكم لآخرتكم التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه وعقابه ، فارهبوا وارغبوا .

ولا يطولنّ عليكم الأمد ، فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم ، فإنه ما بُسط أمل مَن لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه أو يمسي بعد إصباحه . وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا ، وإنما يطمئن إلى الدنيا مَن أَمِنَ عواقبها . فإنّ من يداوي من الدنيا كَلْماً أصابته جراحة من ناحية أخرى ، فكيف يطمئن إليها ؟

أعوذ بالله أن آمركم بما أنهي عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتظهر عيلتي ، وتبدو مسكنتي ، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق .

ثم بكى وبكى الناس معه[١٤] .

---

(١٣) الأمالي ٢ : ١٠٠ .

(١٤) العقد الفريد ٤ : ١٥٥ و١٥٦ .

وحدّث شبيب بن شيبة عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ونبدؤهم بالسلام ؛ فخرج علينا عمر رضي الله عنه في يوم عيد وعليه قميص كتان وعمامة على قلنسوة لاطئة ، فمثلنا بين يديه وسلمنا عليه ، فقال :

مَهْ ! أنتم جماعة وأنا واحد ؛ السلام عليّ والردّ عليكم ، وسلّم ، فرددنا ، وقُرِّبت له دابته ، فأعرض عنها ومشى ومشينا حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي (ص) ، ثم قال:

وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردّوا على فقرائهم ، حتى نستوي نحن بهم ، وأكون أنا أولهم . ثم قال : ما لي وللدنيا ؟ أم ما لي ولها وتكلم فأرقّ حتى بكى الناسُ جميعاً يميناً وشمالاً ، ثم قطع كلامه ونزل ؛ فدنا منه رجاء بن حيوة فقال له :

يا أمير المؤمنين ، كلّمت الناس بما أرقّ قلوبهم وأبكاهم ، ثم قطعته أحوجَ ما كانوا إليه ؛ فقال : يا رجاء ، إني أكره المباهاة[١٥] .

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبة له : أيها الناس ، إنما الدنيا أملٌ مُحترم ، وأجلٌ مُنتقص ، وبلاغ إلى دارٍ غيرها ، وسيرٌ الى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكّر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربّه ، واستقال ذنبه ، ونوّر قلبه .

أيها الناس ، قد علمتم أن أباكم قد أُخرج من الجنّة بذنبٍ واحد ، وأن ربّكم وَعَد على التوبة فليكن أحدُكم من ذنبه على وجل ، ومن ربّه على أمل[١٦] .

---

(١٥) المصدر السابق ٤ : ١٥٦ .

(١٦) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٢ : ٣٧٩ .

وخطب عمر فقال[١٧] :

أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها ؛ ﴿ إن الحسناتِ يُذْهبن السيآت ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾[١٨] ، وقال عز وجل : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحِشَةً أو ظلَموا أنفسهم ذكروا الله فاسْتغْفروا لِذُنوبِهم ومنْ يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يَعْلمونَ ﴾[١٩] .

وخطب في بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه :

أيها الناس ، إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد (ص) ، ألا وإني لست بقاضٍ ، ولكني منفذ ، ألا وإني لست بمبتدع ، ولكني متّبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٢٠] .

وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال : أيها الناس ، لا يطولن عليكم الأمد ، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، ولا يستعتب من شيء ولا يزيد في حسن ، ألا لا سلامة لامرىء في خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ؛ ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وأفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره .

ثم قال : إنه الحبيب إلي أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها . ولا قوة

---

(١٧) انظر العقد الفريد ٥ : ١٧٢ .

(١٨) سورة هود ـ الآية ١١٤ .

(١٩) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٥ .

(٢٠) مروج الذهب ٣ : ١٩٤ و١٩٥ .

إلا بالله[٢١] .

وعن الأصمعي قال : قال عدي بن الفُضيل : خرجت إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استحفره بئراً بالعذبة فقال لي : وأين العذبة ؟ فقلت على ليلتين من البصرة . فتأسّف ألا يكون في مثل هذا الموضع ماء فأحفرني واشترط عليّ أن أول شاربٍ ابن السبيل ، قال : فحضرته في جمعة وهو يخطب فسمعته وهو يقول : يا أيها الناس إنكم ميِّتون ثم إنكم مبعوثون ثم إنكم محاسبون ، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم ، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم .

أيها الناس ، إنه من يُقدَّر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأته ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب .

قال : فأقمت عنده شهراً ما بي إلا استماع كلامه[٢٢] .

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز : قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة .

فقال عمر : جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً ، فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة[٢٣] .

وجاء في العقد الفريد : « وقف عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال : رحمك الله يابني ، فلقد كنت سارّاً مولوداً ، بارّاً ناشئاً ، وما أحب أني دعوتك فأجبتني[٢٤] !

وخطب محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان إلى عمر بن عبد العزيز

---

(٢١) كتاب الخطابة ، أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب ص٣٢٢ .
٢٢) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٩١ و٩٢ .
(٢٣) العقد الفريد ٤ : ٢٠٦ .
(٢٤) المصدر السابق ٣ : ١٧٦ .

أخته ، فتكلم محمد بكلام طويل ، فأجابه عمر :

الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد ، فإن الرغبة منك دعتْك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظنّاً من أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان(٢٥) .

وتوفيت أخت لعمر بن عبد العزيز ، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه ، فلم يردّ عليه شيئاً ؛ ثم دنا إليه آخر فعزاه فلم يردّ عليه شيئاً ، فلما رأى الناسُ ذلك أمسكوا عنه ومشوا معه ! فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه وقال : أدركت الناس وهم لا يُعزّون بامرأة إلا أن تكون أُمّاً ، انقلبوا رحمكم الله(٢٦) .

خطبة عبد الله بن الأهتم بين يدي عمر

ودخل عبد الله بن الأهتم(٢٧) على عمر بن عبد العزيز مع العامة ، فلم يفجأ إلا وهو قائم بين يديه يتكلّم ؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال :

أما بعد ، فإن الله خلق الخلق غنياً عن طاعتهم ، آمِناً من معصيتهم ؛ والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون ، والعرب بشرِّ تلك المنازل ؛ أهل

---

(٢٥) المصدر السابق ٤ : ٢٠٦ .
(٢٦) العقد الفريد ٣ : ٢٣٢ .
(٢٧) عبد الله بن الأهتم : لعلّه خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم ، من فصحاء العرب المشهورين . وكان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وله معهما أخبار . ولد ونشأ في البصرة ، وكان أيسر أهلها مالاً ، له كلمات سائرة ، قيل له : أي إخوانك أحبُّ إليك ؟ فقال : الذي يغفر زللي ويقبل عللي ويسدّ خللي . توفي نحو ١٣٣هـ . وفيات الأعيان ١ : ٢٤٣ .

الوبر وأهل المدر ، تُحْتاز دونهم طيباتَ الدنيا ورفاهة عيشها ؛ ميّتهم في النار وحيّهم أعمى ، مع ما لا يُحصى من المرغوب عنه والمزهود فيه ؛ فلما أراد الله أن ينشر فيهم رحمتَه ، بعث إليهم رسولاً منهم عزيزاً عليه ما عَنِتُوا حريصاً عليهم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ؛ فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه ، ولقّبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ناطق ، لا يرحل إلا بأمره ، ولا ينزل إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ؛ فلما أُمر بالعزيمة أسفر لأمر الله لونُه ، فأفلج الله حجتَه ، وأعلى كلمته وأظهر دعوتَه ، وفارق الدنيا تقيّاً صلى الله عليه وسلم .

ثم قام من بعده أبو بكر رضي الله عنه ، فسلك سُنّتَه وأخذ سبيله ؛ وارتدَّت العرب فلم يقبل منهم إلا الذي كان رسول الله (ص) يقبله ؛ فانتضى السيوف من أغمادها ، وأوقد النيران في شُعلها ، ثم ركب بأهل الحقّ أهلَ الباطل ، فلم يبرح يفصل أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم في الباب الذي خرجوا منه ، وقرّبهم بالأمر الذي نفروا منه ؛ وقد كان أصاب من مال الله بكراً يرتوي عليه ، وحبشية ترضع ولداً له ؛ فرأى ذلك غُصَّة في حلقه عند موته ، وثقلاً على كاهله ، فأدّاه إلى الخليفة من بعده وبرىء إليهم منه ، وفارق الدنيا تقيّاً نقيّاً على منهاج صاحبه .

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ فمصَّر الأمصار ، وخلط الشدّة باللين ، وحسر عن ذراعيه ، وشمّر عن ساقيه ، وأعدّ للأمور أقرانها وللحرب آلتها ، فلما أصابه قِنُّ المغيرة بن شعبة[٢٨] ، أمر ابن العباس

---

(٢٨) المغيرة بن شعبة : أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم . ولد في الطائف . لما ظهر الإسلام تردد في قبوله إلى أن كانت سنة ٥هـ فأسلم ، وشهد الحديبية ، وذهبت عينه في اليرموك . وولاه عمر بن الخطاب على البصرة ، وعزله ثم ولاه الكوفة . توفي سنة =

أن يسأل الناس هل يُثبتون قاتله ؟ فلما قيل له قِنٌّ المغيرة استهل بحمد الله أن لا يكون أصابه من له حق في الفيء ، فيستحلّ دمه بما استحلّ من حقه ؛ وقد كان أصاب من مال الله بضعة وثمانين ألفاً فكسر بها رِباعه ، وكره بها كفالة أهله وولده ، فأدى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا تقيّاً نقيّاً على منهاج صاحبه .

ثم إنّا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع أعوج ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ولدتك ملوكُها ، وألقمتك ثديها ، فلما وليتَها ألقيتها وأحببت لقاء الله وما عنده ؛ فالحمد لله الذي جلا بك حَوبتنا[٢٩] ، وكشف بك كُربتنا . أمض ولا تلتفت ، فإنه لا يُغني عن الحق شيءٌ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين وللمؤمنات[٣٠] .

ولما قال : ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع أعوج ، سكت الناس كلهم غير هشام ، فإنه قال : كذبت ! .

وخطب عمر بن عبد العزيز بخُناصِرة[٣١] خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، إنكم لم تُخلقوا عبثاً ولم تُتركوا سدى ؛ وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسِعَت كل شيء ، وحُرم جنّةً عرضها السموات والأرض ؛ واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف اليوم وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ؛ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلّفها من بعدكم الباقون كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ؛

= ٥٠هـ . الأعلام ٧ : ٢٧٧ .

(٢٩) الحوبة : الإثم .

(٣٠) العقد الفريد ٤ : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٣١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين . معجم البلدان ٢ : ٣٩٠ .

ثم إنكم في كل يوم تشيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وبلغ أجله ، ثم تغيِّبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير مُوسَّد ولا مُمهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، مرتهناً بعمله ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم .

وأيم الله إني لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولُحمتي الذين يَلَوْنني ، حتى يستوي عيشنا وعيشكم .

وأيم الله أني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولا ، عالماً بأسبابه ؛ ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دلّ فيها على طاعته ، ونهى عن معصيته(٣٢) .

ثم بكى ، فتلقّى دموع عينيه بردائه ، ونزل ، فلم يُرَ بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى .

---

(٣٢) العقد الفريد ٤ : ١٥٨ وصفة الصفوة ٢ : ١٢٣ و١٢٤ .



الفصل العاشر

عمر والشعر

* مما كان ينشده عمر :

مـن كـان حيـن تصيـب الشـمسُ جبـهتـه ... أو الـغبـارُ يـخـاف الشَّـيـن والـشَّعـثـا
ويـألـف الـظلَّ كي تـبـقـى بـشـاشـتُـه ... فـسـوف يـسكـن يـومـاً راغـمـاً جَـدَثـا
فـي قـعرٍ مـوحـشـةٍ غـبـراءَ مُـقـفـرةٍ ... يُـطيـل تحت الثَّـرى في رمسهـا اللَّبثـا

* مما كان يتمثّل به :

نـهـارُك يـا مـغـرور سـهـوٌ وغـفـلـةٌ ... ولـيـلُك نـومٌ والـردى لـك لازمُ
يـغـرُّك مـا يـفـنـى وتُـشـغـل بـالـمُـنـى ... كـمـا غُـرَّ بـالـلذات فـي الـنـوم حـالـمُ



لا بدّ في هذا المجال من العودة إلى عصر الخلفاء الراشدين للتذكير بأن السِّمة البارزة في شعر تلك الحقبة هي ضعفه وضيق دائرته ، وخفوت صوته الذي كان مدوِّياً في الجاهلية . وأسباب ذلك عائدة إلى كون الحياة الإسلامية بعيدة كل البعد عن الدواعي التي كانت تحدو الشعراء الجاهليين إلى نظمه ؛ فلا عصبية قبلية ، ولا سكر ، ولا فجور ، ولا هجاء ، ولا تكسّب ، ولا منافرات . وقد انصرف معظم الشعراء الذين دخلوا الإسلام عن قول الشعر ؛ ولولا أن النبي (ص) قد أشار على بعضهم بالرد على هجاته لما كان للشعر في عصر الراشدين شأن يذكر ، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : « كان الشعر مزدهراً عندما كانت توحي به الشياطين . فلما تحوَّل الشيطان إلى ملاك خفت صوت الشعر ، وقَلَّ شأنه » .

معنى ذلك أن الشعر كان مزدهراً مع المفاسد الجاهلية . فلما زالت المفاسد وبُدِّلت بالصلاح ، ضعف أمر الشعر ، وخفت صوته .

ولا بدّ في هذا الصدد من إشارتين :

أولاهما أن الإسلام لم يحرِّم قول الشعر على نحو ما يزعم بعض الدارسين ، وإنما عرّض بالشعر الفاسد الماجن حيث قال تعالى : ﴿ **الشعراء**

يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾[1] .

وثانيتهما أن النبي محمداً (ص) لم يكن يكره الشعر الجيّد ، وإنما كان يعجب به وبقائليه . وكان يحب أن يسمعه أو يتغنى ببعضه . ومن الأحاديث المأثورة عنه قوله : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة »[2] . وحكايته مع كعب بن زهير مشهورة[3] .

على أن هذه الأمور لم تكن كافية لتصرف الناس عن الشعر عامة ، وتنسيهم ذاك النتاج الكثير الذي تركته الجاهلية بين أيديهم . فواقع الحال أن الخلفاء الراشدين ساروا على نهج النبي (ص) في تمييزهم بين شعر وشعر ، فما كان حسناً ومفيداً شجّعوا على حفظه وروايته ؛ وما كان رديئاً فاسقاً عاقبوا عليه .

وفي بعض الروايات أنه لم يبق أحد من أصحاب رسول الله (ص) إلا وقد قال الشعر وتمثّل به ، فمن ذلك قول أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، يرثي النبي (ص) :

أَجِدَّكَ ما لعينكَ لا تنامُ ... كأنَّ جفونَها فيها كلامُ

وقال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه :

ما زلتُ مذْ وضعوا فراشَ مُحمَّدٍ ... كيما يُمرَّضَ خائفاً أتوجَّعُ

وقال عثمان بن عفان ، رضي الله عنه :

---

(١) سورة الشعراء ـ الآية ٢٢٤ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ص٤٥ ، والعمدة ١ : ٢٧ ، والعقد الفريد ٦ : ١٠٧ .

(٣) يروى أن رسول الله (ص) عندما أنشده كعب بن زهير لاميته المشهورة تجاوز عنه ، ووهبه بردته .

فيا عينِ أبكي ولا تسأمي   وحُقَّ البكاءُ على السيِّدِ

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام :

ألا طرقَ النّاعي بليلٍ فراعني   وأرَّقني لما استقرَّ مُناديا[٤]

ولكن هذا كله لم يمنع الخلفاء من تفضيل حفظ القرآن على حفظ الأشعار . وقد حذا حذوهم جماعة من الشعراء كلبيد بن ربيعة العامري الذي أرسل إليه المغيرة بن شعبة ، والي الكوفة ، يستنشده ما قال من الشعر في الإسلام ، فكتب له سورة البقرة في صحيفة ، وقال : « أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر » .

على أن هذه الظاهرة لم تدم طويلاً ، فقد استعاد الشعر في زمن بني أمية مكانته العالية ، وعاد بيت الشعر يرفع قوماً ويخفض آخرين . . . والذي يظهر أن الأمويين فتحوا أبوابهم للشعراء ، وبذلوا لهم الأموال ، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك للعلماء والفلاسفة ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرين :

الأول : أن حكم بني أمية قام على الضغط والقهر ، فكانت حاجتهم إلى الشعراء أشد ، لأنهم هم الذين يبشرون بهم ، ويشيدون بذكرهم ، ويقومون في ذلك مقام الصحافة لأحزابها ؛ ومن أجل هذا لم ينل الحظوة عندهم إلا من كان مادحاً لهم .

الثاني : أن نزعة الأمويين نزعة عربية جاهلية لا تتلذذ من فلسفة ، إنما يلذّ لها الشعر الجيّد ، والخطبة البليغة ، والحكمة الرائعة .

قال المسعودي : « كان عبد الملك بن مروان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح ، وكان عماله على مثل مذهبه » . وشأن أكثر بني أمية شأن عبد الملك ؛ نستثني منهم خالد بن يزيد بن معاوية ، فقد كان له نزعة فلسفية ،

(٤) الجمهرة ص٥٤ .

فوق نزعته الأدبية ، وقد قال فيه الجاحظ في البيان والتبيين : «وكان خالد بن يزيد ابن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء »(٥) .

كما نستثني عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، فقد كانت نزعته دينية وقد شقي به الشعراء ؛ فقد دخل عليه النُّصَيب ذات يوم بعدما ولي الخلافة ، فقال له : إيه يا أسود أنت الذي تشهر النساء بنسيبك ؟ فقال : إني تركت ذلك يا أمير المؤمنين ، وعاهدت الله ألا أقول . وشهد له بذلك من حضر فأعطاه(٦) .

فالواقع أن عمر بن عبد العزيز لم يشجّع الشعراء ، لكن هذا لا يعني أنه لم ينظم الشعر ، ولم يتمثّل به ، وقد كان له مواقف طريفة مع بعض من قرضوا الشعر أو غنُّوه . فقد ذكر جماعة من الإخباريين أن عمر لما ولي الخلافة وفد عليه وفد العرب ووفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاماً منهم ، فقدَّموه عليهم ليبدأ بالكلام ، فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سناً قال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلّم من هو أسَنُّ منك فهو أولى بالكلام ، فقال : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه لسانه وقلبه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الخلّة ؛ ولو كان التقدّم بالسنّ لكان في هذه الأمة من هو أسنّ منك . قال : تكلم يا غلام ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة ، قدمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي منَّ بك علينا ، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا ، وأما الرهبة فقد أمَّننا الله بعدلك من جورك ، فقال : عظنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم ، وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغرنّك حلم الله عنك ، وطول

---

(٥) فجر الإسلام ص١٦٤ .
(٦) فجر الإسلام ص١٦٤ .

أملك ، وحسن ثناء الناس عليك ، فتزلّ قدمُك ، فنظر عمر في سنّ الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضعَ عشرةَ سنة ، فأنشأ عمر رحمه الله يقول :

تعلّم فليس المرءُ يُولَدُ عالماً ... وليس أخو علمٍ كمن هو جاهلُ
وإنّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندهُ ... صغيرٌ إذا التفّتْ عليه المحافلُ(٧)

وكان رجل من أهل العراق أتى المدينة في طلب جارية وُصفت له ، فسأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة ، فأتاه وسأله أن يعرضها عليه ، فقال : يا عبد الله ، لقد أبعدتَ الشقّة في طلب هذه الجارية ، فما رغبتك فيها ؟ قال : إنها تغني فتجيد ، فقال القاضي : ما علمت بهذا ، فألحّ عليه في عَرْضها ، فعرضتْ بحضرة مولاها القاضي ، فقال لها الفتى : هات ، فغنّت :

إلى خالدٍ حتى أنَخْنَ بخالدٍ ... فنعم الفتى يُرجى ونعم المؤمَّلُ

ففرح القاضي بجاريته وسُرَّ بغنائها ، وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى أقعدها على فخذه ، وقال : هاتِ شيئاً بأبي أنت ، فغنّت :

أروحُ إلى القُصَّاص كلَّ عشيّةٍ ... أُرجّي ثوابَ اللهِ في عددِ الخُطا

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ما يصنع ، فأخذ نعله فعلّقها في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها ويقول : أهدوني إلى البيت الحرام ، فإني بَدَنَة ! حتى أدمى أذنه . فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال : يا حبيبي ، انصرف ، قد كنّا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب ، فانصرف الفتى . وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فقال : قاتله الله ! لقد استرقّه الطرب ، وأمر بصرفه من عمله ، فلما صُرف قال : نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبوني فإني مطية ، فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا على عمر قال له : أعِدْ ما قلت ،

(٧) مروج الذهب ٣ : ١٩٧ .

قال : نعم ، فأعاد ما قال ، فقال للجارية : قولي ، فغنّت :

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصفا أنيسٌ ، ولم يَسْمُـرْ بمكّـةَ سـامـرُ[٨]
بلى ، نحنُ كنّـا أهلهـا ، فـأبـادنـا صروف الليـالي والجدودُ العـواثرُ[٩]

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طـرباً بيّنـاً ، وأقبل يستعيـدها ثلاثاً ، وقد بلّتْ دموعُه لحيته ، ثم أقبـل على القاضي فقـال : قد قـاربْتَ في يمينك ، ارجع إلى عملك راشداً[١٠] .

وكان بالمدينة فتى من بني أمية من ولد عثمان ، وكان ظريفاً يختلف إلى قينة لبعض قريش ، وكانت الجاريـة تحبه ولا يعلم ، ويحبهـا ولا تعلم ، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة ؛ فأراد يوماً أن يبلو ذلك ، فقال لبعض من عنده : امضِ بنا إليها ، فانطلقا ، ووافاهما وُجُوه أهل المـدينة من قـريش والأنصار وغيرهما ، وما كان فيهم فتى يَجِدُ بها وَجْدَه ، ولا تَجِـدُ بواحـد منهم وَجْـدَها بـالأموي ، فلمـا أخذ النـاس مواضعهم قـال لها الفتى : أتحسنين أن تقـولي :

(٨) الحجون : جبل بأعلى مكة ، والصفا : مكان مرتفع من جبل أبي قبيس ، بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق .
أما البيتان فهما من قصيدة لمضاص بن عمرو الجرهمي يتشوّق إلى مكة لما أجلتهم عنها خزاعة . وتتمة الأبيات قوله :

فـأخـرجنـا منهـا المليـك بقـدرة كـذلك ، يـا للناس ، تجـري المقـادرُ
فـصـرنـا أحـاديثـاً وكـنّـا بـغـبـطة كـذلـك عضّتنـا السنـون الغـوابـرُ
وبـدّلـنـا كـعـبٌ بـهـا دارَ غـربـة بها الـذئبُ يعـوي والعـدوُّ المكـاشـرُ
فسحّتْ دمـوعُ العين تـجـري لبلدةٍ بـهـا حـرَمٌ أَمْنٌ وفـيهـا المشـاعـرُ

معجم البلدان ٢ : ٢٢٥

(٩) صروف الليالي : دواهيها ومصائبها . الجدود : الحظوظ .
(١٠) مروج الذهب ٣ : ١٩٧ - ١٩٩ .

أحبّكُمُ حبّاً بكلِّ جوارحي فهل عندكم علمٌ بما لكُمُ عندي
أتجزون بالودِّ المضاعفِ مثله فإن كريماً مَنْ جزى الودَّ بالودِّ

قالت : نعم ، وأحسن منه ، وقالت :

للذي ودَّنا المودَّةُ بالضعف وفَضْلُ الباري به لا يُجازى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأر ضَ وأقطارَ شامِها والحجازا

قال : فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها وجودة حفظها فازداد كلفاً بها وقال :

أنتِ عذرُ الفتى إذا هتكَ السّترَ وإنّ كانَ يُوسُفَ المعصوما[١١]

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فاشتراها بعشر حدائق ووهبها له بما يصلحها ، فأقامت عنده حولاً ثم ماتت ، فرثاها ، وقضى في حاله تلك ، فدفنا معاً ، وكان من مرثيته لها قوله :

قد تمنَّيتُ جنَّةَ الخلد للخلدِ فأُدخِلتُها بلا استئهال[١٢]
ثم أُخرجتُ إذ تطمَّعتُ بالنّعمةِ منها والموتُ أحمدُ حالِ[١٣]

ما تمثل به عمر

حدّث محمد بن زكريا الغلابي بالبصرة قال : حدثني ابن الشرفي عن الأصمعي قال : سمع عمر بن عبد العزيز راكباً يغني في سفره :

فلولا ثلاث هُنّ من عيشة الفتى وجدِّك لم أحفل متى قام عُوّدي[١٤]

(١١) في هذا البيت إشارة إلى النبي يوسف (ص) وما جرى له مع امرأة فرعون .
(١٢) وفي نسخة : «قد تمنيت أن أرى جنة الخلد فأدخلتها ـ الخ » .
(١٣) مروج الذهب ٣ : ١٩٩ و٢٠٠ .
(١٤) لم أحفل : لم أهتم . قام عوّدي : انفضّ عني الزوار لاشتداد مرضي ودخولي في نزاع

فمنهنّ سبقُ العـاذِلات بشـربَـةٍ   كمُيتٍ متى ما تعْل بالماء تـزبدِ[١٥]
وكـرّي إذا نـادى المضـاف محنّبـاً   كسيد الغضا نـبّهـتـه المتـورِّدِ[١٦]
وتقصيرُ يوم الـدَّجن والدَّجنُ مُعجبٌ   ببهكَنَـةٍ تحت الـطِّراف الممـدّدِ[١٧]

فقال عمر بن عبد العزيز : وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدي : لولا أن أنفر في السرية ، وأقسم بالسوية ، وأعدل في القضية[١٨] .

وحدّث أبو بكر بن دريد عن بعض أشياخه قال : كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يُنشد شعر عبد الله بن عبد الأعلى القرشي :

تـجهّـزي بـجـهـازٍ تـبـلُغـيـنَ بـه   يـا نفسُ قبل الـرَّدى لم تُخلقي عبثـا
وسـابقي بغتـةَ الآجـالِ وانكمشي   قبـل اللِّزامِ فـلا منجى ولا غَـوثـا
ولا تكُـدِّي لمن يبـقى وتـفتـقـري   إن الـردى وارثُ البـاقي ومـا ورثـا
واخشي حوادث صرفِ الدَّهر في مهلٍ   واستيقني لا تكوني كالذي انتجثا[١٩]
عن مُـديـةٍ كـان فيهـا قـطعُ مُـدَّتـه   فـوافقَ الحرثَ مـوفـوراً كمـا حـرثـا
لا تـأمني فجـعَ دهـرٍ مُـورطٍ خبـلٍ   قـد استوى عنـده مـا طـاب أو خبثـا
يـا رُبَّ ذي أمـلٍ فيـه على وجـلٍ   أضحى بـه آمنـاً أمسى وقـد جُئثا[٢٠]
من كـان حين تصيب الشمس جبهته   أو الغبـارُ يخـاف الشَّين والشَّعثـا

---

(١٥) العاذلات : اللائمات . الكميت : الأحمر الضارب إلى السواد . ما تعل : أي متى صبَّ عليها الماء علاها الزبد .
(١٦) كرّي محنّباً : توجيهي لفرس محنّب ، أي سريع الجري . السيد : الذئب . الغضا : ضرب من الشجر . نبهته : أجفلته . المتورد : الذي ورد الماء ليشرب .
(١٧) يوم الدجن : اليوم الغائم الممطر . المعجب: الذي يثير العجب لطوله . البهكنة : المرأة السمينة الجميلة . الخباء: المضرب. المعمد : المرفوع العمد .
(١٨) العقد الفريد ٧ : ١١ و٢١٢ .
(١٩) انتجث الشيء : استخرجه .
(٢٠) جُئث : فزع وذُعر .

ويـألفُ الـظلَّ كي تبقى بشـاشتُـه   فسـوف يسكن يـومـاً راغمـاً جَـدَثـا
في قعـر مـوحشـةٍ غبـراءَ مُقفـرةٍ   يُطيل تحت الثَّرى في رمسها اللَّبثا(٢١)

وقال سعيد بن محمد الثقفي : سمعت القاسم بن غـزوان يقول : كـان عمر بن عبد العزيز يتمثـل بهذه الأبيات :

أيقـظانٌ أنت اليـومَ أم أنت نـائـمُ   وكيف يُـطيقُ النـومَ حيـرانُ هـائمُ
فلو كنتَ يقـظانَ الغـداة لحـرّقَتْ   مـدامعَ عينيـكَ الـدموعُ السّـواجمُ
بلَ أصبحتْ في النوم الطويل وقد دنتْ   إليـك أمـورٌ مُفـظِعـات عـظائـمُ
نهـارُك يـا مـغـرور سهـوٌ وغـفلةٌ   ولـيـلُك نـومٌ والـردى لـكَ لازمُ
يغـرُّكَ مـا يفنى وتشغـل بـالمُنى   كمـا غُـرَّ بـاللّذات في النـوم حـالمُ
وتُشـغـلُ فيمـا سـوف تكـرهُ غِبَّـهُ   كذلك في الـدنيا تعيشُ البهـائمُ(٢٢)

وحدّث أحمد بن عبيد قال : قال عمر بن عبد العزيـز ـ رحمه الله ـ قبـل خلافته :

إنـهِ الـفـؤادَ عـن الـصِّـبـا   وعـن انـقـيـادٍ لـلـهـوى
فـلَعَـمـرُ ربِّـك إنّ فـي   شـيـب الـمـفـارقِ والـجَـلى
لـكَ واعـظاً لـو كـنـت تـتَّـعظُ   اتِّـعـاظَ ذوي الـنُّـهـى
حـتـى مـتـى لا تـرعـوي   وإلـى مـتـى وإلـى مـتـى
مـا بَـعْـدَ أنْ سُـمِّـيـتَ كـهـلاً   واسـتُـلبـتَ اسـمَ الـفـتـى
بـلِيَ الـشـبـابُ وأنـتَ إنْ   عُـمِّـرتُ رهـنٌ لـلـبـلـى

---

(٢١) القصيدة أثبتها القالي في الأمالي ٢ : ٣١٩ ، وقد ورد البيتان الثامن والتاسع في الكامل في اللغة والأدب ١ : ٣٧٥ .

(٢٢) صفة الصفوة ٢ : ١٢٥ ، والعمدة ١ : ٣٧ .

وكفى بذلك زاجراً للمرء عن غيٍّ كفى[٢٣]

وروي له أيضاً :

ولولا النّهى ثم التّقى خشية الرّدى لعاصيتُ في حبّ الصبا كلَّ زاجرِ
صبا ما صبا فيما مضى ثم لا ترى له صبوةً أخرى الليالي الغوابر[٢٤]

ويروى عن عمر أنه خرج في سفر ليلاً هو ورفيق له ، فقال له رفيقه : انظر إلى القمر ما أحسنه ،فنظر فقال : قد علمت أنك أردت نزوله بالدَّبَران[٢٥] ونحن لا نتطيّر لذلك ولا نعتقده ، ثم قال :

إذا عقَدَ القضاءُ عليك أمراً فليس يحلُّهُ إلاّ القضاءُ
يدبّرُ بالنجومِ وليس يدري وربُّ النجم يفعل ما يشاء

ولسنا ندري هل تمثّل بهذا الشعر أم أنه نظمه .

وواضح أن عمر بن عبد العزيز منذ حُلّت عنه تمائم صباه اعتزل الدنيا عاكفاً على العبادة والتأمل ، فما رحل عن هذه الأرض إلا وقد أودعنا أسرار ذاته ، ونبض وجدانه ، وأمانة ضميره وعقله . . .

رفض عمر الحياة قبل مماته ، تاركاً للأجيال من أمته النهج القويم والصراط المستقيم؛ لعلّها تجد فيه حداءَ مسرى ، ودعاء إيمان وتقوى . . .

كان قدّيساً ، ولا كل القدّيسين ، ينيب إلى ربّه ، ويدعو إلى الانصراف عن الشهوات ، ومتاع الحياة الزائلة ، والاعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح

---

(٢٣) الأمالي ٢ : ٤٥ ، وكذلك أثبت ابن رشيق هذه الأبيات في العمدة ١ : ٣٨ باستثناء البيت الخامس .
(٢٤) العمدة ١ : ٣٨ .
(٢٥) الدَّبران : منزل للقمر وهو مشتملٌ على خمسة كواكب في برج الثور ، سمي بذلك لأنه يتبع الثريّا .

(تجهـزي قبـل الـردى ، سـابقي بغتـة الآجـال ، واخشي واستيقني ، لا تأمني . . . الخ) .

هذه الصرخة أمام هوى النفس وجموح الأهواء كان لها معنى ومدلـول ، فإن هو أطاعها حملته إلى ما لا يطيق من الذنوب والآثام ، لذا كان حرياً به أن يقهرها ، ويدفع عنها بادرة سطوتها حتى يصون دينه .

لقـد قصر عمـر بعض ما نسب إليـه من شعر أو مـا تمثّـل بـه على ترك الهوى ، والاتعاظ بالدنيا وفناء لـذاتها وبقـاء تبعاتهـا ؛ فنعمها زائلة ، ونقمهـا نازلة ؛ ومهما طال عمر الإنسان فإلى بلاء وفناء . . . فكلنا يجـري إلى غايـة ينتهي عندها أجله ، فمن العجب أن تتعلق قلوبنا بـهـا ، ونحن كـل يوم نقـطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، حيث لا منجى ولا غوثا .

ما مدح به عمر

من البديهي أن يكون لكل عظيم صفات يمتدح بها ، ومآثر يُشار إليها ، لكن الشعراء لم يفرِّقوا بين العظماء والأنبياء وغيـرهم ، وإنما مـدحوا كـل من وجدوا عنده مالاً ، مما جعل الشعر يفقد معانيـه الإنسانيـة ، في حين أنه نشـأ إعزازاً للفضيلة ، وإكباراً لصاحبها ، ليتخذ الناس من أهـل الفضل قـدوة ومن أعمالهم مُثلاً عليا .

وللرسول الكريم (ص) في هذا المجال مواقف وآراء ، منها ما يثني على الشعراء ويثيبهم كقوله (ص): « إن من الشعر لحكمة. . . » ومنها مـا يستهجن أشعارهم ويهدر دماءهم . وقد أشـرنا إلى قصـة إسلام كعب بن زهيـر في هذا الإطار .

وعن ابن عائشة قال : قال رسول الله (ص) : الشعر كلام من كلام العرب

جزلٌ تتكلّم به في نواديها وتَسُلٌّ به الضغائن بينها[٢٦] .

وعن الشعبي بإسناده قال : أنشد نابغة بني جعدة[٢٧] النبي (ص) هذا البيت :

بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤددا وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهَرا

فقال النبي (ص) : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة بك يا رسول الله ! قال : نعم ، إن شاء الله . فلما أنشده :

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم تكن لهُ بَوادرُ تحمي صفوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أوردَ الأمرَ أصدرا

قال له النبي (ص) : لا فضَّ الله فاك ! .

وكان قبيصة بن ذؤيب يزعم أن الخليفة لا يُناشد الأشعار ، لكن هذا الزعم لا يصحّ ، وقد نوشد رسول الله (ص) ، يوم قدم عليه عمرو بن سليم الخزاعي، وكانت خزاعة حلفاء له ، فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حيّ من خزاعة يقال لهم بنو كعب ، فقتلوا فيهم ، وأخذوا أموالهم ، فقدم عمرو على النبي (ص) مستنصراً فقال :

يا ربِّ إني ناشدٌ محمّدا حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

قال : فدمعت عينا رسول الله (ص) ونظر إلى سحابة قد بعثها الله فقال : والذي بعثني بالحق نبيّاً إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب ، وخرج بمن

---

(٢٦) الجمهرة ص٤٥ .

(٢٧) هو عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة ، وكان يُكنّى أبا ليلى ، وهو جاهلي ، قدم على الرسول (ص) وأسلم ومات بأصبهان نحو ٥٠هـ وقد جاوز المئة سنة . الشعر والشعراء ص١٥٨ ـ ١٦٠ .

معه لنصرهم[٢٨] .

ويروى أن قُرّة بن هبيرة وفد على رسول الله (ص) فبايعه وأسلم ، فحباه وكساه بُردين ، وحمله على فرس ، واستعمله على قومه ، فقال قرّة يذكر ذلك ، ويذكر ناقته في قصيدة له طويلة :

حباها رسولُ الله إذ نزلتْ به وأمكَنَها من نائلٍ غير مُفْنَدِ[٢٩]
فما حملتْ من ناقةٍ فوق رحلِها أبرَّ وأوفى ذمّةً من محمّدِ[٣٠]
وأكسى لبُرد الحال قبل ابتذالِه وأعطى لرأسِ السابح المتجرّدِ[٣١]

لقد حذا الخلفاء حذو الرسول الكريم ، فأثابوا كل من تغنى بالإسلام وامتدح فضائله ، وأقاموا حدود الشريعة وأنزلوا العقاب ، بكل من نظم شعراً فاحشاً أو هجاء مقذعاً . . . من هذا القبيل كان حبس عمر بن الخطاب للحطيئة لإسرافه في الهجو والذمّ ، ولم يأمر بإطلاقه إلا بعد أن أخذ عليه عهداً .

وبعودتنا إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، نرى أنه لم يعرِ الشعر اهتماماً بارزاً ، فقد شقي الشعراء في عهده ، مما جعل الأحوص يذكّره عطية رسول الله (ص) كعباً ، وقد توقّف الخليفة عن عطاء الشعراء :

وقبلَك ما أعطى هُنيدةَ جلّة على الشعر كعباً من سديس وبازل[٣٢]
رسولُ الإله المستضاءُ بنوره عليه السلامُ بالضّحى والأصائلِ[٣٣]

---

(٢٨) الجمهرة ص٥٠ .
(٢٩) المفند : الضعيف الرأي والجسم .
(٣٠) الرحل : الكُور ، وهو ما تُركب عليه الأبل .
(٣١) السابح : السريع الجري . المتجرّد : المتقدّم .
(٣٢) هنيده : اسم للمائة من الأبل . ويقال « سديس » للناقة إذا كانت في السنة الثامنة ، والبازل : فوق السديس .
(٣٣) العمدة ١ : ٢٤ .

هذا لا يعني أن الشعراء كفّوا عن مدحه ، فهذا عتبة بن شماس يمدحه بقوله :

إنّ أولى بالحقّ في كلّ حقٍّ ... ثم أحرى بأن يكون حقيقا
مَنْ أبوه عبد العزيز بن مروا ... ن ومَنْ كان جدُّه الفاروقا
ثم داموا لنا علينا وكانوا ... في ذُرا شاهقٍ تفوتُ الأنوقا(٣٤)

واستأذن نصيب بن رباح على عمر بن عبد العزيز فلم يأذن له ، فقال : أعلموا أمير المؤمنين أني قلت شعراً أوله الحمد لله . فأعلموه ، فأذن له ؛ فأدخل عليه وهو يقول :

الحمد لله ، أما بعد يا عمرُ ... فقد أتتنا بك الحاجاتُ والقَدَرُ
فأنت رأسُ قريشٍ وابن سيِّدِها ... والرأسُ فيه يكون السمعُ والبصرُ

فأمر له بحليّة سيفه .

وقال أعرابي في مدح عمر بن عبد العزيز :

مُقابل الأعراق في الطابِ الطاب ... بين أبي العاص وآل الخطّاب(٣٥)

وقال عُويف القوافي(٣٦) شعراً يرثي سليمان بن عبد الملك ويذكر عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ومنه :

لاحَ سحابٌ فرأينا برقَهُ ... ثم تدانى فسمعنا صعقَهُ

(٣٤) العقد الفريد ٦ : ١٢٣ ، ورواية صدر البيت في الكامل للمبرد : « ردّ أموالنا علينا وكانت » .

(٣٥) العقد الفريد ٤ : ٣٥.

(٣٦) هو عوف بن معاوية بن عقبة ، كان من أشراف قومه في الكوفة . اشتهر في الدولة الأموية بالشام ، ومدح الوليد وسليمان ابني عبد الملك . متوفى نحو ١٠٠هـ . الأعلام ٥ : ٩٧ .

وراحتْ الريحُ تُزجّي بُلْقه وَدُهْمَه ثم تُزجّي وُرْقَه
ذاك سقى وَدْقاً فروّى وَدْقَه قبر امرىءٍ أعظمَ ربّي حقّه
قبرَ سليمانَ الذي مَنْ عقّه وجحدَ الخيرَ الذي قد بَقّه
في العالمين جِلَّهُ ودِقّه لما ابتلى الله بخيرٍ خلقَه
وكادتْ النفسُ تساوي حلقَه ألقى إلى خير قريش وَسْقَه
يا عمرَ الخير الملقّى وَفْقَه سُمّيت بالفاروق فافرُقْ فرقَهُ
وارزقْ عيالَ المسلمين رزقَه واقصد إلى الخير ولا تَوَقّه
بحرُك عذبُ الماءِ ما أعَقّه ربُّك والمحرومُ من لم يُسقَه

وكتب عبيد الله بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز وبلغه عنه شيء يكرهه :

أبا حفصٍ أتاني عنك قولٌ قُطعتُ به وضاق به جوابي
أبا حفصٍ فلا أدري أرغمي تُريدُ بما تُحاولُ أم عتابي
فإن تكُ عاتباً نعتِبْ وإلاّ فما عُودي إذاً بِيَراعٍ غابِ
وقد فارقتُ أعظمَ منك رُزْءاً وواريتُ الأحبَّةَ في الترابِ
وقد عزُّوا عليَّ وأسلموني معاً فلبستُ بعدهُمُ ثيابي(٣٧)

وقال جرير يمدحه(٣٨) :

أبَتْ عيناكَ بالحسنِ الرُّقادا وأنكرتَ الأصادِقَ والبلادا(٣٩)
لعمرُكَ إن نفعَ سعادَ عنّي لمصروفٌ ونفعي عن سُعادا
فلا ديَةً سقيتِ وَدَيْتِ أهلي ولا قَوَداً بقتلي مستعادا
ألما صاحبّي نَزُرْ سعادا لِقُربِ مزارها وذَرا البعادا

---

(٣٧) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٤٠٥ .
(٣٨) العقد الفريد ٢ : ٨٣ .
(٣٩) الحسن : موضع في بلاد بني ضبة سمي الحسن بحسن شجره .

فتــوشــكُ أنْ تـشطَّ بـنـا قَـذُوفٌ ... تُكـلُّ نياطُهـا القُلُصَ الجيادا[٤٠]
إليـك شمـاتـةَ الأعـداءِ أشكـو ... وهـجـراً كـان أوّلُـهُ بـعـادا
فـكيف إذا نـأتْ ونـأيتُ عـنهـا ... أعـزّي الـنـفسَ أو أزعُ الـفـؤادا
أُتيـحَ لـك الضعـائنُ من مُـرادٍ ... ومـا خـطبٌ أتـاح لنـا مُـرادا[٤١]
إلـيـكَ رحلتُ يـا عـمـرَ بنَ ليلى ... عـلى ثـقـةٍ أزورُك واعـتـمـادا[٤٢]
تـعـوّدْ صـالـحَ الأعـمـالِ إنـي ... رأيتُ الـمـرءَ يـلزمُ مـا استـعـاد
أقـولُ إذا أتَـيْـنَ عـلى قـرورى ... وآلُ الـبـيـد يـطّرِدُ اطّـرادا[٤٣]
عليكم ذا النـدى عـمـرَ بنَ ليلى ... جـواداً سـابـقـاً وَرِثَ الـجـيـادا
إلـى الفـاروق يـنتسبُ ابنُ ليـلى ... ومـروانُ الـذي رفـع الـعـمـادا
تـزوّدْ مـثـلَ زادِ أبيـكَ فـيـنـا ... فـنـعـمَ الـزادُ زادُ أبـيـك زادا
فمـا كعبُ بنُ مـامَـةَ وابن سُعدى ... بأجـوَدَ منك يـا عمـرُ الجـوادا[٤٤]
هـنـيئـاً لـلمـديـنـةِ إذ أهَـلَّتْ ... بـأهـلِ الملكِ أبـدَأ ثم عـادا[٤٥]
يعـودُ الحلمُ منـك عـلى قـريشٍ ... وتـفـرِجُ عنـهمُ الـكُـرَبَ الشِـدادا
وقـد آمـنـتَ وحـشَـهُـمُ بـرفـقٍ ... ويعيـي النـاسَ وحشُـك أن يُصـادا

---

(٤٠) تشط : تبعد ، والقذوف : النية البعيدة . والقلص : النوق الطويلة القوائم .

(٤١) مراد : هو مراد بن مالك بن أدد من مذحج .

(٤٢) ليلى : هي جدته أم أبيه عبد العزيز .

(٤٣) قرورى : ماء لبني عبس بين الحاجز والنقرة .

(٤٤) كعب بن مامة : من أجواد العرب ، يضرب به المثل ، وقد خرج في رفقة فيها الأخلاط من العرب فنفذ ماؤها ، فجعلوا يشربون بالحصى ، فلما نزلوا اقتسموا ماءهم ، فنظر إلى كعب رجل من النمر بن قاسط ، فلما رآه ينظر إليه آثره بمائه ، وقال : اعط أخاك النمري يصطبح ، فلما نزلوا المنزل الآخر اقتسموا ما بقي معهم من الماء ، فنظر إليه النمري أيضاً فقال : اعط أخاك النمري يصطبح ، فآثره بمائه ، فرحل القوم ولا قوه بكعب على الرحيل ، فمات عطشاً ، وابن سعدى : هو أوس بن حارثة بن لأم الطائي . مجمع الأمثال للميداني .

(٤٥) أهلت : أظهرت ذلك .

وتبني المجـدَ يـا عمـر ابن ليـلى ... وتكفي المُمحـلَ السنـةَ الجمـادا
وتـدعـو الله مجتهـداً ليـرضى ... وتـذكـر في رعيَّـتـك المـعـادا
ونِـعـمَ أخـو الـحـروب إذا تـردّى ... على الـزَّغْفِ المضاعفـةِ النِّجادا(٤٦)
وأنتَ ابنُ الـخضـارم مـن قُـريشٍ ... هُـمُ نصـروا الـنـبـوَّةَ والـجهـادا
وقـادوا الـمـؤمـنـيـن ولـم تـعـوَّدْ ... غـداةَ الـروع خيلُهُمُ القِيـادا(٤٧)
إذا فـاضـلـتَ مـدَّكَ مـن قُـريشٍ ... بحـورٌ غمٌّ زاخـرُهـا الثمـادا (٤٨)
وإن تـنـدُبْ خـؤولـةَ آلِ سَـعْـدٍ ... تـلاقي الغُـرَّ في السَّلفِ الجِعـادا
لـهم يـومَ الـكُـلابِ ويـوم قـيسٍ ... هـراقَ على مُسَلَّحَـةَ المَـزادا(٤٩)

وفيه يقول أيضاً :

لجَّتْ أُمـامـةُ في لـومي ومـا عَلِمتْ ... عـرضَ السَّماوة روحـاتي ولا بُكَـري
ولا تَقَعقُـعَ الـحـيِّ العيس قـاربَـةً ... بينَ المِـراجِ وَرَعْني رِجلتي بَقَـرِ

---

(٤٦) الزغف : الدرع الصغيرة الحلق . والنجاد : حمائل السيف .

(٤٧) الروع : الحرب التي تذهل الأبطال . والخيل كناية عن الرجال .

(٤٨) الثماد : الماء المالح .

(٤٩) أراد قيس بن عاصم المنقري ، وكان من حديث يوم مسلحة أن قيس غزا بمقاعس وهو رئيس عليها وساند مع سلامة بن الظرب في الأجارب رئيساً عليها . وكانوا لا يصلون أحداً بحرب إلا أجربوهم وعرّوهم فسموا الأجارب وبنو مقاعس عبيد وربيع وصريم فمن بني عبيد بنو منقر رهط قيس بن عاصم وبنو مرّة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس فغزوا بكر ابن وائل فوجدوا اللهازم وهم بنو قيس وتيم اللات ، وعجل وعنزة . . . فتنازع قيس وسلامة في الغارة ثم اتفقا على أن يغير قيس على أهل النباج وسلامة على أهل ثيتل ، فبعث قيس الأهتم طليعة يوم الكلاب فلقي رجلًا من البكريين فتعاقدا ألا يتكاتما . فقال له الأهتم : من أنت ؟ فقال : فلان بن فلان ، ونحن بجوف الماء حضور . فمن أنت ؟ قال : سنان بن سمي وهو لا يُعرف إلا بالأهتم . فغفل نفسه ورجع البكري فأخبر قومه فلم يعرفوه . ورجع الأهتم فأخبر قيساً الخبر وقال : يا أبا علي ، هل بالوادي من طرفاء ؟

ما هوَّمَ القومُ مُذْ شدُّوا رِحَالَهُم ... إلا غشاشاً لدى أعضادِها اليُسْرِ(٥٠).
يضرحْنَ ضرحاً حصى المعزاء إذ وَقَدَتْ ... شمسُ النّهارِ وعادَ الظلُّ للقِصَرِ
يوماً يُصادي المهارى الخُوص تحسبُها ... عُورَ العيونِ وما فيهنّ من عَوَرِ
قد طال قولي إذا ما قمتُ مُبتهلاً ... يا رب أصلحْ قِوامَ الدِّين والبَشَرِ
خليفةَ الله ثمّ الله يحفظُهُ ... والله يصحبُكَ الرَّحمنُ في السَّفَرِ
إنّا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفةِ ما نرجو من المطرِ
يا رب سَجْلٍ مُغيثٍ قد نفحتَ به ... من نائلٍ غيرِ منزوحٍ ولا كَدِرِ
أأذكرُ الجهدَ والبلوى التي نزلَتْ ... أم قد كفاني الذي بُلِّغتَ من خبرِ
ما زلتُ بعدَكَ في دارٍ تَعَرَّقُني ... قد عيَّ بالحيِّ إصعادي ومُنْحدري (٥١)
لا ينفعُ الحاضرُ المجهودُ باديَهُ ... ولا يعودُ لنا بادٍ على حَضَرِ
كم بالمواسم من شعثاء أرملةٍ ... ومن يتيم ضعيفِ الصوت والنظر(٥٢)
يدعوك دعوةَ ملهوفٍ كأنَّ به ... خبلاً من الجنِّ أو خبلاً من النَّشَرِ
ممّن يعدُّك تكفي فَقْدَ والدِهِ ... كالفرخِ في العُشِّ لم يدرُجْ ولم يَطِرِ
يرجوك مثل رجاء الغيثِ تجبُرُهُمُ ... بُوركتَ جابرَ عظمٍ هيضَ مُنكسِرِ
فإن تدعْهُم فمن يرجون بعدَكُمُ ... أو تُنْجِ منها فقد أنجيتَ من ضَرَرِ

وأراد بالطرفاء الجمع الكثير . قال: بل به نِعَم ، وعرف أنهم بكر ، وكتم أصحابه مخافة أن يجبنوا ، فلما أصبح سقى خيله وأطلق أفواه المزاد ، وقال لأصحابه : قاتلوا فالموت بين أيديكم والغلاة وراءكم ، فلما دنا من القوم ضحى سمعوا ساقياً من بكر يقول لأصحابه: أورد يا قيس ،فتفاءلوا به أنه الظفر ، فأغاروا فقاتلهم أهل النباج قتالاً شديداً ، ثم إن بكراً انهزمت فأسر الأهتم حمران بن عبد عمرو وأسر فدكي بن أعبد وأصابوا غنائم كثيرة ، فقال قيس : لا نقيل دون إخوتنا بثيتل ، فالنجاء النجاء ، فأبوا ولم يُغر سلامة على من بها وأغار قيس فقاتلوا وانهزم البكريون ، فأصابت بنو سعد إبلاً كثيرة ، فجاء سلامة وقال: أغرتم على ما كان لي ، وتلاحوا حتى كاد الأمر يفقم ويشتد بينهم ، ثم سلموا غنائم ثيتل . . .

(٥٠) التهويم : النوم القليل . والغشاش : العجلة .

(٥١) يقول : قد أصعدت وانحدرت في كشف ما بالحي وبي ، فما قدرت عليه .

(٥٢) المواسم : الواحد موسم ، وإنما أراد موسم الحج .

خليفةَ الله ماذا تنظرون بنا ... لسنا إليكم ولا في دار مُنتظَرِ[٥٣]
أنتَ المباركُ والمهديُّ سيرَتُهُ ... تعصي الهوى وتقومُ الليلَ بالسُّوَرِ
أصبحتَ للمنبرِ المعمورِ مجلِسُهُ ... زيناً وَزَيْنَ قبابِ المُلْكِ والحَجَرِ
نالَ الخلافةَ إذ كانتْ لهُ قَدَراً ... كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ[٥٤]
فلن تزالَ لهذا الدِّين ما عمروا ... منكم عمارةُ مُلْكٍ واضحِ الغُرَرِ
هُمْ ما هُمُ القوم ما ساروا وما نزلوا ... إلا يسُوسونَ مُلكاً عاليَ الخَطَرِ
ما صاح من حيّةٍ ينمي إلى جَبَلٍ ... إلا صَدَعْتَ صفاةَ الحيّةِ الذَّكرِ
أخوالُك الشُّمُّ من قيسٍ إذا فزعوا ... لا يُعْصِمون حذارَ الموتَ بالعُذَرِ
كم قد دعوتُكَ من دعوى مخلَّلَةٍ ... لما رأيتُ زمانَ الناسِ في دُبُرِ
لِتنعشَ اليومَ ريشي ثم تُنهضني ... وتُنزلَ اليُسْرَ منّي موضعَ العُسُرِ
فما وجدتُ لكم ندّاً يُعادِلُكُم ... وما علمتُ لكم في الناس من خَطَرِ
إني سأشكرُ ما أوليتَ من حَسَنٍ ... وخيرُ مَنْ نُلتَ معروفاً ذوُو الشُّكُرِ

وله أيضاً في مدح عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

إن الذي بعثَ النبيَّ محمداً ... جعلَ الخلافةَ في الإمامِ العادلِ
ولقد نفعْتَ بما مَنَعْتَ تحرُّجاً ... مَكْسَ العُشور على جُسُورِ السَّاحِلِ[٥٥]
قد نالَ عدلُك مَن أقامَ بأرضنا ... فإليكَ حاجةُ كُلِّ وفدٍ راحِلِ
إني لآمَلُ منكَ خيراً عاجلاً ... والنفسُ مولَعَةٌ بحبِّ العاجِلِ
والله أنزلَ في الكتابِ فريضةً ... لابنِ السَّبيلِ وللفقيرِ العائِلِ[٥٦]

وقال في مدحه أيضاً :

---

(٥٣) يقول : لسنا عندكم فنعيش بظلكم ولا في دار إقامة .
(٥٤) ويروى : « عزّ الخلافة بل كانت له قدراً » .
(٥٥) إشارة إلى منع عمر بن عبد العزيز شتم علي ، رضي الله عنه ، على المنابر ، والعشور : ما يأخذه الحكام من عشر الأموال ظلماً .
(٥٦) العائل : الفقير المحتاج ، الكثير العيال .

هل رام أم لم يرم ذو السِّدر فالثَّلَمِ ذاك الهوى منكَ لا دانٍ ولا أَمَمُ (٥٧)
إن طِلابَكَ شيئاً لستَ نائلَهُ جهلٌ وطولُ لُباناتِ الهوى سَقَمُ
يا عاذليَّ أقلَّا اللومَ قبلكما قال الوشاةُ فمعصيٌّ ومُتَّهَمُ
إني ببرقةِ سلمانين آنقني منها غداةَ بدَتْ دلٌّ ومُبتسمُ (٥٨)
ذكرتنا مسكَ داريٍّ لهُ أَرَجٌ وبالحنيِّ خُزامي طلُّها الرِّهَمُ (٥٩)
حمَّلتُ رحلي على الأهوالِ ناجيةً مثلَ القريع المُعَنَّى شفَّهُ السَّدمُ (٦٠)
من الطوامح أبصاراً إذا خشعت عنها ذرى عَلَمٍ قالوا بدا عَلَمُ
حتى انتهينا إلى من لم نجاوزه تجري الأيامِنُ لا بخلٌ ولا عدَمُ (٦١)
إلى الأغرِّ الذي تُرجى نوافلُه إذا الوفودُ على أبوابه ازدحموا
جاؤوا ظماءً فقد روّى دلاءهُمُ فيضٌ يَمدُّ من التيّارِ مُقتَسَمُ
أنهضْ جناحيَّ في ريشي فقد رجعت ريشَ الجناحين من آبائك النِّعَمُ
أنت ابنُ عبد العزيز الخير لا رَهِقٌ غمرُ الشَّبابِ ولا أزرى بكَ القدَمُ
تدعو قريشٌ وأنصارُ النبيّ لهُ أن يُمتعَوا بأبي حفصٍ وما ظلموا
راحوا يحيّون محموداً شمائلُهُ صَلْتَ الجبين وفي عرنينه شَمَمُ
يرجون منكَ ولا يخشونَ مَظلمةً عُرفاً وتُمطرُ من معروفِكَ الدِّيَمُ
أحيا بكَ الله أقواماً فكنتَ لهم نورَ البلادِ الذي تُجلى به الظُّلَمُ
لم تلقَ جَدّاً كأجدادٍ يَعُدُّهُمُ مروانُ ذو النُّورِ والفاروقُ والحكمُ
أشبهتَ من عمر الفاروق سيرتَهُ سنَّ الفرائضَ وائتمَّتْ به الأممُ

---

(٥٧) الأمم : ما بين القريب والبعيد . والثلم : موضع بالصمان .
(٥٨) آنقني : أعجبني .
(٥٩) الحنى : وادلبني عوف ، والداري : نسبة إلى دارين بالبحرين . والرهم : المطر الضعيف .
(٦٠) القريع : الفحل أعد للضراب . والسدم : الحبس على الضراب .
(٦١) ويروى عجزه : « بحر الأنام فلا منّ ولا عدم » .

ألفيتَ بيتــك في العليــاءِ مكّنــهُ أسُّ البنــاء ومــا في سُــورِهِ هَــدَمُ
والتفَّ عيصُك في الأعياص فوقَ ربـىً تجـري لهنّ سوافي الأبـطحِ العُظُمُ
وفي قضــاعَــة بيتٌ غيــرُ مُؤتَشَبٍ نِعمَ القــديمُ إذا مـا حُصِّــل القِــدَمُ
وفـي تـمـيـمٍ لــهُ عــزٌّ قُــراسِيَــةٌ ذو صـولةٍ صـلْقَمٌ أنيــابُه تَمَمُ(٦٢)
أنـتم أئـمــة من صلّى وعـنــدكُـمُ لــلطامعين ولــلجيــرانِ مُـعـتـصَـمُ
والمُستـقــادُ لهـم إمـا مـطاوعــةً عفــواً وإما على كُــرهٍ إذا عـزمــوا
يـا أعظَم النـاس عنـد العفـو عـافيـةً وأرهبَ النـاسِ صولاتٍ إذا انتقمـوا
قـد جـرَّبتْ مصــرُ والضحّـاك أنّهمُ قومٌ إذا حاربـوا في حربهم فحُمُ(٦٣)
هـلاّ سـألتَ بهم مصــرَ التي نكثتْ أو راهـطاً يـومَ يحمي الـرايـة البُهَمُ
عبـدُ العـزيـز الـذي سـارت بـرايتـه تلك الزّحوفُ إلى الأجناد فاصطدموا
مـا كــان من بلدٍ يعلو النفــاقُ بــه إلا لأسيــافِكُـم ممَّـن عصى لُحَـمُ
عبـد العـزيــز بنى مجـداً ومكــرمـةً إن المكـارمَ من أخـلاقكم شِيَمُ(٦٤)

ومدحه أيضاً بقوله :

هذي الأراملُ قـد قضَّيتَ حاجتَهـا فمن لحـاجـةِ هـذا الأرمـل الـذَّكـرِ

فأمر له بثلاثمائة درهم(٦٥) .

وحدّث أبو بكر بن دريد قال أخبرنا الرياشي عن ابن سلام قال : بلغني أن الأحوص دخل على يزيد بن عبد الملك فقال له يزيد : لو لم تَمتَّ إلينا بحـرمة ، ولا تـوسَّلت بدالّـةٍ ، ولا جدَّدت لنـا مـدحـاً ، غيـر أنـك مقتصـر على بيتيـك

(٦٢) القراسية : الفحل الضخم الخلق . الصلقم : قرع أنياب الفحل بعضها ببعض .
(٦٣) الفحم : الجرأة ، وكان مروان قد مضى إلى مصر في ستة آلاف بعد موقعة مرج راهط وخلف عليها عبد العزيز ابنه . والضحاك بن قيس الفهري كان من دعاة الزبير .
(٦٤) الديوان ص٥٠٩ و٥١٠ وانظر الكامل في اللغة والأدب ١ : ٤٠١ .
(٦٥) العقد الفريد ٦ : ١٢٤ .

لاستوجبت عندنا جزيل الصّلة ، ثم أنشد يزيد :

وإنـي لأستحييكُـمُ أن يقـودنـي   إلى غيـركم من سائـر الناس مـطمعُ
وأن أجتـدي للنّفـع غيـرَك منهـمُ   وأنـت إمـامٌ لـلبـريّـة مَـقْـنَـعُ

وقال الرياشي : وإنما قال هذين البيتين في عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[٦٦] .

وكان ابن سعدٍ الأزدي قد تولّى صدقات الاعراب وأعطياتهم في خلافة عمر بن عبد العزيز فقال جرير يشكوه :

إن عيـالـي لا فـواكـهَ عنـدهـم   وعنـد ابن سعـدٍ سُكّـرٌ وزبيبُ
وقـد كـان ظنّي بـابن سعـدٍ سعـادة   ومـا الـظنُّ إلا مخـطىءُ ومُصيبُ
فـإن تـرجعـوا رزقي إليّ فـإنـه   مـتـاعُ لـيـالٍ والأداءُ قـريـبُ
تَحَنّى العـظامُ الـراجفـاتُ من البلى   وليس لـداء الـركبتيـن طبيبُ[٦٧]

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز يشكو إليه عماله :

إن الـذيـن أمـرتهـم أن يعـدلـوا   نبـذوا كتـابَـك واستُحـلَّ المحـرَّمُ
وأردتَ أن يـليَ الأمـانـةَ منـهُـمُ   بـرٌّ وهيـهـاتَ الأبـرَّ الـمسـلمُ
طُلْسُ الثيـابِ على منـابـر أرضنـا   كـلٌّ بنقصِ نـصيبنـا يـتكلَّمُ[٦٨]

وكتبت امرأة عمر بن عبد العزيز إلى عمر لما اشتغل عنها بالعبادة :

ألا أيـهـا الـمـلكُ الـذي قـد   سبـى عـقـلي وهـام بـه فـؤادي
أراك وسـعت كـلّ الـنـاس عـدلاً   وجُـرتَ علـيّ مـن بيـن الـعبـادِ

---

(٦٦) الأمالي ١ : ٦٩ .
(٦٧) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٤٠١ .
(٦٨) المصدر السابق ١ : ٤٠٤ .

وأعـطيتَ الـرعيّـةَ كـل فـضـلٍ ومـا أعـطيتني غيـرَ السـهـاد !

فصرف وجهه إليها(٦٩) .

وبلغ عبيـد الله بن عبد الله بن عتبـة بن مسعود عن عمـر بن عبد العـزيز بعض ما يكره ، فكتب إليه :

أتـاني عنـك هـذا اليـوم قـولٌ فـضقـتُ بـه وضـاق بـه جـوابي
أبـا حـفصٍ فـلا أدري أرغـمـي تـريـدُ بمـا تحـاولُ أم عـتـابي
فـإن تـكُ عـاتـبـاً تُـعـتَـب وإلا فـمـا عُـودي إذاً بـيـراع غـاب
وقـد فـارقـتُ أعـظمَ منـك رِزْءاً وواريـتُ الأحـبّـةَ فـي الـتـراب
وقـد عـزُّوا عـليّ فـأسلمـوني معـاً فلبستُ بعدهُمُ ثيـابي(٧٠)

رثاء عمر

إن وفاة عمر بن عبد العزيز المفاجئة حالت دون تطبيق سياسته العادلة التي لو استمرت لحققت مردوداً إيجابياً لصالح الناس والدولة ، لكن من جاء بعده قد أزال كل ما جاء به سلفه .

وبوفاة عمر وتولي يـزيد بن عبـد الملك الخلافـة (١٠١ ـ ١٠٥هـ) تبنى سياسة مغايرة تماماً لسياسة عمر ، قال ابن الأثير في الكامل : « وعمد يزيد إلى كل ما عمله عمر ما لم يـوافق هواه فـردّه . ولم يخف شفاعـة عاجلة ولا إثمـاً آجلا » .

ويذكر المسعودي أن مسلمة بن عبد الملك لام أخاه يزيد لما عمّ الناس من الظلم والجور ولإقباله على اللهو والشرب وقال : « إنما مات عمر أمس وكان

(٦٩) العقد الفريد ٨ : ١٠٣ .
(٧٠) العقد الفريد ٦ : ١١٨ .

من عدله ما قد علمت فينبغي أن تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهـو ، فقد اقتدى بك سائر عمالك في سائر فعالك وسيرتك » .

فإن كان شقي الشعراء في عهد عمر ، فلقد عمّ البلاء الرعيـة في عهد يزيد بن عبد الملك . ومن المفيد في هذا المجال أن نشير إلى بعض المراثي التي قيلت عندما نعي الخليفة الزاهد العابد .

فقد رثى مُحارب بن دِثار عمر بن عبد العزيز بهذه الأبيات :(٧١)

كم من شـريعـة حقٍّ قـد أقمتَ لهم ... كـانت أُميتتْ وأُخـرى منـك تُنتـظرُ
يا لهف نفسي ولهف الواجـدين معي ... على النجـوم التي تغتـالهـا الحُفَـرُ
ثـلاثـةٌ مـا رأت عينٌ لهم شـبهـاً ... يَضُمُّ أعـظمَهُم في المسجـد المـدَرُ
فـأنتَ تتبعـهم لـم تـألُ مجتهـداً ... سقيـاً لهـا سُننـاً بـالحقِّ تُفـتقـرُ
لـو كنت أملـك والأقـدار غـالبـة ... تـأتي صبـاحـاً وتبيـاتـاً وتبتكِـرُ
صـرفتُ عن عُمَر الخيـرات مصرَعَـهُ ... بـدير سمعـان لكن يغلب القدرُ(٧٢)

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز يرثيه :

قـد غيَّبَ الدافنـون اللحدَ إذ دفنـوا ... بـديـر سمعـان قُسطاسُ المـوازين
من لم يكن همُّـهُ عينـاً يُفجِّـرهـا ... ولا الـنخيـلَ ولا ركضَ البـراذيـن
أقـول لـمـا أتـاني ثَـمَّ مـهـلكُـهُ ... لا يبعـدنَّ قِـوامُ الملك والـدين(٧٣)

وقال رجل من خزاعة يرثي عمر بن عبد العزيز بن مروان :

أمـا الـقـبـورُ فـإنّـهـنّ أوانسٌ ... بـجـوارِ قـبـرِكَ والـدّيـارُ قـبـورُ

---

(٧١) الأمالي ٣ : ١ .

(٧٢) دير سمعان بكسر السين وفتحها : دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور وورود ، وبه قبر عمر بن عبد العزيز .

(٧٣) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٤٠٤ ، وفي مروج الذهب ٣ : ٢٠٥ نُسبت الأبيات للفرزدق .

جلَّتْ رزيئَتُهُ فَعَمَّ مُصابُهُ ... فالناسُ فيه كلهم مأجورُ
ردَّتْ صنائعُه إليه حياتَهُ ... فكأنه من نشرها مَنْشورُ
والناسُ مأتمهم عليه واحدٌ ... في كلِّ دارٍ رنَّةٌ وزفيرُ
يثني عليكَ لسانُ مَن لم تُولِهِ ... خيراً لأنّكَ بالثناء جديرُ(٧٤)

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز(٧٥) :

ينعى النُّعاةُ أميرَ المؤمنين لنا ... يا خيرَ مَن حجَّ بيتَ الله واعتمرا
حُمِّلت أمراً عظيماً فاصطبرت له ... وسِرْتَ فيه بحكم الله يا عُمَرا (٧٦)
فالشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ ... تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

---

(٧٤) الكامل في اللغة والأدب ٢ : ٣٢٢ .
(٧٥) العقد الفريد ٣ : ٢١١ .
(٧٦) وفي بعض الأصول « وقمت فيه بأمر الله » وفي الكامل في اللغة والأدب ١ : ٤٠٢ « وقمت فيه بحق الله » .



الفصل الحادي عشر
عمر والغناء

جاء في الأغاني : « المنسوب إلى الخلفاء من الأغاني والمُلصق بهم منها لا أصل لجُلِّه ولا حقيقة لأكثره ، لاسيما ما حكاه ابن خُرداذبة فإنه بدأ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر أنه تغنّى في هذا البيت :

كأن راكبها غصنٌ بمَروحةٍ

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحداً بعد واحد ، حتى كأن ذلك عنده ميراث من مواريث الخلافة أو ركن من أركان الإمامة لا بدّ منه ولا معدل عنه . . .

فأوّل من دُوّنت له صنعةٌ منهم عمر بن عبد العزيز ؛ فإنه ذُكر عنه أنه صنع في أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها كلّها .

ومن الناس من يُنكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ويقول : إنها أصوات محكمة العمل لا يقدر على مثلها إلاّ من طالت دربته بالصّنعة وحذق الغناء ومهر فيه وتمكّن منه . ولم يوجد عمر بن عبد العزيز في وقت من الأوقات ولا حال من الحالات اشتهر بالغناء ولا عُرف به ولا بمعاشرة أهله ، ولا جالس من يُنقل ذلك عنه ويؤديه ؛ وإنما هو شيء يحسِّن المغنون نسبته إليه . ورُوي من غير وجه خلافُ لذلك وإثبات لصنعته إياها ، وهو أصحّ القولين ؛ لأن

الذين أنكروا ذلك لم يأتوا على إنكارهم بحجّة أكثر من هذا الظن والدعوى ، ومخالفوهم قد أيّدتهم أخبار رُويت .

عن كردم بن معبد عن أبيه : أن عمر بن عبد العزيز طارحه لحنه في :

ألمّا صاحبيّ نزرْ سعادا

وحدّثت عاتكة بنت شهْدة عن أمها شهدة عن كردم قال : طرح عليّ عمر ابن عبد العزيز لحنه :

عَلِقَ القلبُ سعادا عادتِ القلبَ فعادا
كلّما عُوتِبَ فيها أو نُهي عنها تمادى
وهو مشغوفٌ بسُعدى قد عصى فيها وزادا

قال كردم : وكان عمر أحسن خلق الله صوتاً ، وكان حسن القراءة للقرآن[١] .

وأخبر أحمد بن الحسين قال : رأيت عمر بن عبد العزيز في النوم وعليه عمامة ورأيت الشجّة في وجهه تدلّ على أنها ضربة حافر ، فسمعته يقول : قال عمر بن الخطاب : لا تُعلّموا نساءكم الخُلْع[٢] .

قال حدثني محمد بن الحسين؛ فأقبلت عليه في نومي فقلت له : يا أمير المؤمنين ، صوت يزعمْ الناس أنك صنعته في شعر جرير :

ألّما صاحبيّ نزرْ سعادا لوشكِ فراقها وذرا البعادا
لعمرك إنّ نفعَ سعاد عنّي لمصروفٌ ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق ينتسبُ ابنُ ليلى ومروان الذي رفع العمادا

---

(١) الأغاني ٩ : ٢٨٩ و٢٩٠ .

(٢) الخلع : تطليق المرأة ببذل منها للزوج .

فتبسّم عمر ولم يردّ عليّ شيئاً»[٣] .

وحدّث محمد بن أحمد بن يحيى المكي عن أبيه قال : لعمر بن عبد العزيز في سعاد سبعة ألحان . منها :

يا سعادُ التي سبتني فؤادي ورُقادي هَبي لعيني رُقادي

ومنها :

خظُّ عيني من سعاد أبداً طول السُّهاد

ومنها :

سبحان ربي برا سُعادا لا تعرف الوصل والودادا

ومنها :

لعمري لئن كانت سعادُ هي المُنى وجنّةَ خلدٍ لا يملُّ خلودُها

ومنها :

سعادُ جودي لا شقيتِ سعادا واجزي مُحبّك رأفةً ووِدادا

ومنها :

ألّما صاحبيّ نزرْ سعادا

ومنها :

ألا يا دِيْنَ قلبك من سُليمى[٤]

عن إبراهيم بن يعقوب بن أبي عبيد الله قال : قال عمر بن عبد العزيز : إني لأعرف صلاّح بني هاشم من فُسّادهم بحبِّ كثيِّر : من أحبّه منهم فهو

(٣) الأغاني ٩ : ٢٩٠ و٢٩١ .

(٤) نفس المصدر ٩ : ٣١١ و٣١٢ .

فاسد ، ومن أبغضه فهو صالح ؛ لأنه كان خشبيّاً يقول بالرجعة .

وعن رجاء بن حيوة قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : إن مما أعتبر به صُلاّح بني هاشم وفُسّادهم حُبّ كثيّر[٥] .

حدّث ابراهيم بن عبد الله مولى بني زهرة قال : حضرت عمر بن لجأ وجرير بن الخطفي موقوفين للناس بسوق المدينة لمّا تهاجيا وتقاذفا ، وقد أمر بهما عمر بن عبد العزيز فقُرنا وأُقيما . قال : وعمر بن لجأ شاب كأنه حصان ، وجرير شيخ قد أسنّ وضعف . قال؛ فيقول ابن لجأ :

رأوا قمراً بساحتهم منيراً   وكيف يُقارِنُ القمرُ الحمارا

قال : ثم ينزو به وهما مقرونان بحبل فيسقطان إلى الأرض ، فأما ابن لجأ فيقع قائماً ، وأما جرير فيخرّ لركبتيه ووجهه ، فإذا قام نفض الغبار عنه . ثم قال بغنّته قولاً يخرج الكلام به من أنفه ـ وكان كلامه كأن به نوناً :

فلستُ مفارقاً قرني حتى   يطولَ تصعّدي بك وانحداري

قال : فقال رجل من جلساء عمر ، وكان أُحضر لعمر غذاؤه : لو دعا الأمير بأسيريه فغدّاهما معه ! ففعل ذلك عمر[٦] .

عمر يطلب الى نصيب إنشاده

عن الضّحّاك الحزامي قال : دخل نصيب مسجد رسول الله (ص) وعمر ابن‌عبد العزيز رضي الله عنه يومئذ أمير المدينة ، وهو جالس بين قبر النبي (ص) ومنبره فقال : أيها الأمير ، ائذن لي أن أنشدك من مراثي عبد العزيز . فقال : لا تفعل فتحزنني ، ولكن أنشدني قولك « قفا أخوي » فإن شيطانك[٧]كان لك فيها

---

(٥) الأغاني ٩ : ٢٥ و٢٦ .
(٦) الأغاني ٨ : ٨٧ .
(٧) اعتقد العرب أن لكل فحل من فحول الشعراء شيطاناً يلقنه الشعر . قال الأعشى :

ناصحاً حين لقّنك إياها . فأنشده :

قــفــا أخــويَّ إنّ الــدار لــيــسـتْ ... كمــا كــانت بــعهــدِكُـمــا تكــونُ
لــيــالي تــعــلمــان وآلُ لــيــلى ... قــطينُ الــدار فــاحتمــل الـقــطينُ[8]
فــعُــوجــا فــانــظُرا أتُبــيــن عــمّــا ... ســألــنــاهــا بــه أم لا تــبــيــنُ
فــظلّا واقــفــيــن وظــلّ دمــعي ... على خــدِّي تجــودُ بــه الــجفــونُ
فــلولا إذ رأيــت الــيــأسَ مــنــهــا ... بــدا أن كِــدت تــرشُقُــك العيــونُ
بــرحتَ فلم يَلُمــك الــنــاسُ فيهــا ... ولم تَغْلق كمــا غَلِقَ الــرّهينُ[9][10]

* النصيب يعاهد الله ألا يقول نسيباً

قال أيوب : ودخل النصيب على عمر بن عبد العزيز بعدما ولي الخلافة فقال له : إيه يا أسود ! أنت الذي تشهِّر النساء بنسيبك! فقال : إني قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين ، وعاهدت الله عز وجل ألا أقول نسيباً ، وشهد له بذلك من حضر وأثنوا عليه خيراً . فقال : أما إذا كان الأمر هكذا فسلْ حاجتك . فقال : بُنَيّات لي نفضت عليهنّ سوادي فكَدْنَ ، أرغب بهنّ ، عن السودان ويرغب عنهنّ البيضان . قال : فتريد ماذا ؟ قال : تفرض لهنّ ، ففعل . قال : ونفقة لطريقي . قال : فأعطاه حلية سيفه وكساه ثوبيه وكانا يساويان ثلاثين درهماً[11] .

دعــوتُ خليلي مــسحــلاً ودعــوا لــه ... جهنــام ، جــدعــاً للهجين الـمــذمم
فمسحل وجهنام هما شيطانا شعر ، وموطن هذه الشياطين وادي عبقر ، ومنه اشتقت كلمة عبقرية .

(٨) القطين : المقيم ، وقطين الدار : أهلها .

(٩) غلق الرهين : لم يقدر راهنه على تخليصه من يد المرتهن في الموعد المحدّد ، فصار ملكاً للمرتهن ، وذلك في الجاهلية لا في الإسلام .

(١٠) الأغاني ١ : ٣٣٠ و٣٣١ .

(١١) المصدر السابق ١ : ٣٣٢ و٣٣٣ .

قيس بن الخطيم هو أنسب الناس

حدّث عبد الرحمن بن أبي الزّناد عن أبيه قال:

كان عمر بن عبد العزيز ينشد قول قيس بن الخطيم:

بين شُكول النساء خُلقتُها ... قصْدٌ فلا جبلةٌ ولا قَضَفُ
تنامُ عن كُبْر شأنها فإذا ... قامت رويداً تكاد تنقصفُ
تغترق الطرفَ وهي لاهيةٌ ... كأنما شفَّ وجهَها نزفُ

ثم يقول: قائل هذا الشعر أنسب الناس[١٢].

وجاء في الأمالي: «عن اسماعيل بن أبي حكيم قال: بعثني عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في الفداء حين ولي، فبينا أنا أجول في القسطنطينية إذ سمعت صوتاً يتغنّى:

أرقتُ وبان عنّي من يلوم ... ولكن لم أنم أنا والهمومُ
كأني من تذكُّر ما إلاقي ... إذا ما أظلم الليلُ البهيمُ
سليمٌ ملّ منه أقربوه ... وودّعه المداوي والحميمُ
وكم بين العقيق إلى المُصلَّى ... إلى أحدٍ إلى ما حاز رِيمُ
إلى الجمّاء من وجه أسيل ... نقيّ الخدّ ليس به كُلُومُ
يضيء دُجى الظلام إذا يراه ... كضوء البدر منظرُه وسيمُ
ولّما أن دنا منّا ارتحالٌ ... وقُرِّب ناجياتُ السَّير كُوم
أتين مودِّعات والمطايا ... علا أكوارها خُوصٌ هجومُ
فقائلة ومثنية علينا ... تقول وما لها فينا صميمُ
وأخرى لبُّها معنا ولكن ... تستَّر وهي واجمة كظُومُ

---

(١٢) الأغاني ٣ : ٤٣ .

تـعــدُّ لنــا اللـيــاليَ تـحـتـصـيـهــا   مــتـى هــو حــائــنٌ مــنّــا قُــدومُ
مـتـى تــر غـفـلة الــواشـيـن عـنّــا   تَجُــدْ بـدمــوعهــا العينُ السَّجــومُ

قال أبو عبد الله القرشي : والشعر لنُقيلة الأشجعي . قال اسمـاعيل بن أبي حكيم : فسألته حين دخلت عليه ، فقلت له : من أنت ؟ قال: أنا الوابصيُّ الذي أُخِذت فعُـذِّبت فجزعت فـدخلت في دينهم ، فقلت : إن أمير المؤمنين بعثني في الفداء ، وأنت والله أحبُّ من أفديه إليّ إن لم تكن بطنتَ في الكفر ، قال : والله لقد بطنتُ في الكفر ، فقلت له : أُنشدك الله ، قال : أأُسلم وهذان ابناي ! وإذا دخلتُ المدينة قال أحدهم يا نصراني ! وقيل لولديّ وأمهم كذلك ! لا والله لا أفعل ! فقلت له : لقد كنت قارئاً للقرآن ! قال: والله لقد كنت من أقرأ الناس ، فقلت : ما بقي معك من القرآن ؟ قال : لا شيء غير هذه الآية ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾[١٣] فعلمت أن الشقاوة غلبت عليه[١٤] .

---

(١٣) سورة الحجر ـ الآية ٢ .

(١٤) ذيل الأمالي ١٩ و٢٠ .





الفصل الثاني عشر
الرسائل والأقوال

* قال رجل لعمر : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيتَ أن تصمُتَ . قال : فمتى أصمت ؟ قال : إذا اشتهيتَ أن تتكلم .

* قال عمر : من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عملٌ قلّ كلامه إلا فيما ينفعه .

* وقال مخاطباً الخوارج : إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها .

* وقال في رسالة إلى عمر بن الوليد : . . . رويداً يا ابن بنانة ، فلو التقى حلقتا البطان ورُدَّ الفيءُ إلى أهله لتفرّغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المِحَجّة البيضاء ؛ فطالما تركتم الحقَّ وأخذتم في بنيّات الطريق ، ومن وراء هذا ما أرجو أن أكون رأيته بيْع رقبتك ، وقسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإنّ لكلٍّ فيك حقاً ، والسلام علينا ، ولا ينال سلامُ الله الظالمين .



قيل : لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلّب :

أمـا بعد ، فـإن سليمان كـان عبداً من عبـاد الله أنعم الله عليه ثم قبضـه واستخلفني ، ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان ، وإنّ الذي ولّاني الله من ذلـك وقدّر لي ليس عليّ بهيّن ، ولـو كانت رغبتي في اتخـاذ أزواج أو اعتقـاد أموال ، لكان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحـد من خلقه ، وأنا أخاف فيما ابتُليتُ به حساباً شديـداً ومسألـة غليظة إلا مـا عفا الله ورحم ، وقد بايع من قِبَلنا فبايعْ من قِبَلك .

فلما قرأ يزيد الكتاب قيل له : لستَ من عُمّاله لأن كلامه ليس ككلام من مضى من أهله . فدعا يزيد الناسَ إلى البيعة ، فبايعوا[1] .

وقال طفيل بن مرداس : كتب عمر إلى سليمان بن السرجي : أن اعمل خانات ، فمن مرّ بك من المسلمين فـأقروه يـوماً وليلة وتعهّـدوا دوابّهم ، ومن كانت به علّة فأقروه يومين وليلتين ، وإن كان منقطَعاً به فأبلغْه بلده .

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٠ .

فلما أتاه كتاب عمر قال له أهل سمرقند[٢] : قتيبة[٣] ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذنْ لنا فليقدم منّا وفد على أمير المؤمنين . فأذن لهم ، فوجّهوا وفداً إلى عمر ، فكتب لهم إلى سليمان :

إن أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلسْ لهم القاضي فلينظْر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة .

فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم[٤] على سواء فيكون صالحاً جديداً أو ظفراً عنوةً فقال أهل الصعد : بل نرضى بما كان ولا نحدثُ حرباً ، وتراضوا بذلك[٥] .

وكتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة :

أما بعد ، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاءٌ وشدّة وجورٌ في أحكام الله وسنّة خبيثة سنّها عليهم عمّال السوء ، وإن قوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونّن شيء أهم إليك من نفسك ، فإنه لا قليل من الإثم ، ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذنّ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذنّ أجور الضرّابين ، ولا

(٢) سمرقند : بلد معروف مشهور ، قيل : إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر ، وهو قصبة الصُغد . معجم البلدان ٣ : ٢٤٦ .

٣) قتيبة : هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي . كان أبوه كبير القدر عند يزيد بن معاوية ونشأ هو في الدولة المروانية ، وولي الريّ في أيام عبد الملك بن مروان ، وخراسان في أيام ابنه الوليد ، قتله وكيع بن حسّان التميمي سنة ٩٦هـ . قال أحد الأعاجم بعد مقتله : يا معشر العرب ، قتلتم قتيبة ، ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا. وفيات الأعيان ١ : ٤٢٨ ورغبة الآمل ٣ : ٦ و٦ : ١١٨ .

(٤) نابذ : خالف وفارق عن عداوة ، ونابذوهم الحرب : جاهروهم بها .

(٥) الكامل في التاريخ ٥ : ٦٠ و٦١ .

هدية النوروز[٦] والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفتوح ، ولا أجور البيوت ، ولا درهم النكاح ، ولا خراج على مَن أسلم من أهل الأرض . فاتبع في ذلك أمري فإني قد ولّيتك من ذلك ما ولاني الله ، ولا تعجّل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه ، وانظر مَن أراد من الذرّية أن يحجّ فعجّل له مائة ليحجّ بها ، والسلام[٧] .

وكتب عمر إلى عمّاله نسخة واحدة : أما بعد ، فإن الله عزّ وجلّ ، أكرم بالإسلام أهله ، وشرّفهم وأعزّهم ، وضرب الذلّة والصّغار على من خالفهم ، وجعلهم خير أمّة أُخرجت للناس ، فلا تولّينّ أمور المسلمين أحداً من أهل ذمّتهم وخراجهم فتتبسّط عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلّهم بعد أن أعزّهم الله ، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى ، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم ، ومع هذا فلا يؤمن غشّهم إيّاهم ، فإن الله ، عزّ وجلّ ، يقول : ﴿ **لا تتّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عَنِتّم** ﴾[٨] و﴿ **لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ** ﴾ ؛ والسلام[٩] .

وكتب إلى عبد الرحمن بن نُعيم : أما بعد ، فاعمل عمل مَن يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين[١٠] .

وكتب إلى أهل البصرة يذكرهم بحرمة الخمر : أسأل الله أن يزيد المهتدي منّا ومنكم هدى ، وأن يراجع المسيء منّا ومنكم التوبة في يسر وعافية[١١] .

---

(٦) النوروز : هو عند الفرس أول يوم من أيام السنة الشمسية ، وهو يوم الفرح عموماً . .
(٧) الكامل في التاريخ ٥ : ٦١ .
(٨) سورة آل عمران ـ الآية١١٨ .
(٩) سورة المائدة ـ الآية٥١ .
(١٠) الكامل في التاريخ ٥ : ٦٦ .
(١١) المصدر السابق ٥ : ٦٠ .

وكتب يحيى الغساني والي البصرة إلى عمر بخبره أنه قدمها والياً فرآها من أكثر البلاد سرقاً ونقباً ، واستأذنه إن يأخذ الناس بالظنّة ، ويضربهم على التهمة . فكتب إليه عمر يقول: خذ الناس بالبيّنة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله !(١٢) .

وبلغت الخوارجَ سيرةُ عمر بن عبد العزيز وما ردّ من المظالم ، فاجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل . فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك فكتب إليه :

إنك قد أزريتَ على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبتَ عليهم ، وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم وشَنْئاً لمن بعدهم من أولادهم ، قطعت ما أمر الله به أن يُوصل إذ عمدتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها في بيت المال جوراً وعدواناً ، ولن نُترك على هذا .

فلما قرأ عمر كتابه كتب إليه :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد .

السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

أما بعد . فإنه بلغني كتابك وسأجيبك بنحوٍ منه : أما أول شأنك ابن الوليد كما زعم فأمك « بنانه » أمة السكون ، كانت تطوف في سوق حمص ، وتدخل وتدور في حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان من فيء المسلمين فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس المحمول وبئس المولود ! . ثم نشأت فكنت جبّاراً عنيداً تزعم أني من الظالمين ، لما حرمتك وأهل بيتك فيء الله

---

(١٢) ابن الجوزي ١٠٢ .

عز وجل الذي فيه حقُّ القرابة والمساكين والأرامل ، وإنّ أظلَمَ مني وأترك لعهد الله مَن استعملك صبيّاً سفيهاً على جند المسلمين ، تحكم فيهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نيّة إلا حُبّ الوالد لولده . فويلٌ لك وويلٌ لابيك ! ما أكثر خُصَماءَكُما يوم القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟ وإنّ أظلَمَ مني وأتركَ لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدَّمَ الحرام ويأخذ المال الحرام ؛ وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قُرّة بن شريك أعرابياً جافياً على مصر ، إذِنَ له في المعازف واللهو والشرب ؛ وإنّ أظلَمَ مني وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهماً في خُمس العرب . فرويداً يا ابن بنانة ، فلو التقى حلقتا البطان[١٣] ورُدَّ الفيءُ إلى أهله لتفرّغت لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجّة البيضاء ؛ فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيّات الطريق[١٤] ، ومن وراء هذا ما أرجو أن أكون رأيته بيْع رقبتك ، وقسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإنّ لكلٍّ فيك حقاً ، والسلام علينا ولا ينال سلامُ الله الظالمين[١٥] .

وكتب عمر إلى بعض عماله : الموالي ثلاثة : مولى رحِم ، ومولى عُتاقة ، ومولى عَقد ؛ فمولى الرحم يرث ويُورَث ، ومولى العتاقة يُورَث ولا يرث ، ومولى العقد لا يَرث ولا يُورث وميراثه لعصبته[١٦] .

وكتب إلى عماله أيضاً : مُرُوا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ويلبسوا الأكسية ، ولا يتشبّهوا بشيء من الإسلام ، ولا تتركوا أحداً من الكفار يستخدم أحداً من المسلمين[١٧] .

---

(١٣) الخليفة الزاهد ١٦٦ .

(١٤) التقى حلقتا البطان : عظم الخطب واشتد الأمر .

(١٥) بنيّات الطريق : الطرق الصغيرة المتشعّبة من الجادّة .

(١٦) صفة الصفوة ٢ : ١١٥ و١١٦ و١١٧ .

(١٧) العقد الفريد ٥ : ١٧١ .

وكتب أيضاً إلى عماله : مُرُوا من كان قبلكم فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم صغيراً ولا كبيراً ، ذكراً ولا أنثى ، إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان ؛ مُدّين من قمح ، أو صاعاً من تمر ، أو قيمة ذلك نصف درهم ؛ فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعيالاتهم ، واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه في مساكين أهل الحاضرة ، ولا يُقسم على أهل البادية[١٨] .

رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار في الأنبذة

« أما بعد فإن الناس كان منهم في هذا الشراب المحرّم أمر ساءت فيه رِعَة كثير منهم ، وجمعوا مما يغشون به مما حرم الله كثيراً نهوا عنه عند سَفَه أحلامِهم ، وذهاب عقولهم ، فاستُحلّ به الدم الحرام ، والفرْجُ الحرام ؛ وإن رجالاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون : شربنا طِلاء[١٩] ، فلا بأس علينا في شربه ! ولعمري فيما قرّب مما حرّم الله بأساً ، وإن في الأشربة التي أحلّ الله ، ومن العسل والسويق[٢٠] ، والنبيذ والتمر ، لمندوحة عن الأشربة الحرام غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا في أسقية الأدم التي لازفت فيها ، ولا يُشرب منها ما يُسكر ! فإنه بلغنا أن رسول الله (ص) نهى عن شرب ما جُعل في الجرار والدُّباء[٢١] والظروف المزفتة ، وقال : « كل مسكر حرام » .

فاستغنوا بما أحلّ لكم عما حرّم عليكم ؛ وقد أردت بالذي نهيت عنه من شرب الخمر وما ضارع الخمر من الطلاء ، وما جعل في الدباء والجرار

---

(١٨) المصدر ذاته ٥ : ١٧١ .
(١٩) المصدر ذاته ٥ : ١٧١ و١٧٢ .
(٢٠) الطلاء : يُكنى به عن الخمر .
(٢١) السويق : الخمر .

والظروف المزفتة ، وكل مسكر ـ اتخاذ الحجة عليكم ؛ فمن يُطع منكم فهو خير له ، ومن يخالف إلى ما نهي عنه نعاقبه على العلانية ، ويكفينا الله ما أسرَّ ، فإنه على كل شيء رقيب ؛ ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلا »[٢٢] .

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : أي الجهاد أفضل ؟ فقال : جهادك هواك[٢٣] .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز خرج يوماً فقال : الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، ومُرّة بن شُريك بمصر ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن ، امتلأت الأرض والله جوراً[٢٤] .

وقيل : إن عمر بن عبد العزيز ذُكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال : الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقُرّة بمصر ، وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكّة ، اللهمّ قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فَأَرِحِ الناس ! فلم يمض غير قليل حتى توفي الحجاج وقُرّة بن شريك في شهر واحد ، ثم تبعهما الوليد وعُزل عثمان وخالد ، واستجاب الله لعمر .

وما أشبه هذه القصة بقصة ابن عمر بن زياد بن أبيه حيث كتب إلى معاوية يقول له : قد ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة . يعرّض بإمارة الحجاز . فقال ابن عمر لمّا بلغه ذلك : اللهم أرحنا من يمين زياد وأرِحْ أهل العراق من شماله . فكان أول خبر جاءه موت زياد[٢٥] .

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم في حاجة فقال : « هذا والله

---

(٢٢) الدباء : ضرب من الجرار .

(٢٣) العقد الفريد ٨ : ٦٤ و٦٥ .

(٢٤) الكامل في اللغة والأدب ١ : ٨٧ و١٢٣ .

(٢٥) المصدر نفسه ١ : ٣٠٥ .

السِّحر الحلال »[٢٦] .

وقيل : جاء رجل من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فقال : أنا فلان بن فلان ، قُتل جدي يوم بدر وقُتل جدي فلان يوم أُحد ، وجعل يذكر مناقب سلفه ، فنظر عمر إلى عنْبَسة بن سعيد بن العاص فقال : هذه المناقب والله لا يوم مسكن ويوم الجماجم ويوم راهط[٢٧] ! وأنشد :

تلك المكارمُ لا قَعبانِ من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بَعدُ أبْوالا[٢٨]

وقال الأوزاعي : قال عمر بن عبد العزيز : لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم[٢٩] .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا كان في القاضي خمسُ خصال فقد كمل : علمٌ بما كان قبله ، ونزاهةٌ عن الطمع ، وحلمٌ عن الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاروة أهل العلم والرأي .

وقال أيضاً : إذا أتاك الخصمُ وقد فُقِئتْ عينُه ، فلا تحكم له حتى يأتي خصمُه ؛ فلعلّه قد فُقئت عيناه جميعاً[٣٠] .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما ولدت أميّةُ مثلَ خالد بن يزيد ، ما استثنى عثمان ولا غيره[٣١] .

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعوده في مرضه فسأله عن علّته ،

---

(٢٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤ : ٥٨٤ .
(٢٧) البخلاء ١٧٥ .
(١٢٨) من أيام العرب المشهورة .
(٢٩) الكامل في التاريخ ٤ : ٤٩٣ .
(٣٠) المصدر نفسه ٤ : ٥٨٦ .
(٣١) العقد الفريد ١ : ٩١ .

فلما أخبره قال : مِن هذه العلّة مات فلان ، ومات فلان . فقال له عمر : إذا عُدْتَ المرضى فلا تَنْعَ إليهم الموتى ، وإذا خرجتَ عنّا فلا تَعُد إلينا[٣٢] .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيت أن تصمُتْ . قال : فمتى أصمُت ؟ قال : إذا اشتهيت أن تتكلم .

قال أبو الزناد : كنتُ كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد عامله على المدينة في المظالم ، فيراجعه فيها ؛ فكتب إليه : إنه يخيَّل إليّ أني لو كتبتُ إليك أن تعطي رجلاً شاةً ، لكتبتَ إليّ : أضأناً أم معزاً ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ إليَّ : أذكراً أم انثى ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ : أصغيراً أم كبيراً ! فإذا كتبتُ إليك في مظلمة فلا تراجعني فيها[٣٣] .

وذُكرت فاطمة بنت الحسين عليهما السلام عند عمر بن عبد العزيز ، وكان لها معظِّماً ، فقيل : إنها لا تعرف الشر . فقال عمر : عدم معرفتها بالشر جنَّبها الشر[٣٤] .

واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلاً ، فقيل له : إنه حديث السن ولا نراه يضبط عملك ؛ فأخذ العهد منه وقال : ما أراك تضبط عملك لحداثتك ؛ فقال الفتى :

وليس يزيد المرءَ جهلاً ولا عمىً ... إذا كان ذا عقل ، حداثةُ سنّه

فقال عمر : صدق ، وردّ عليه عهده[٣٥] .

(٣٢) المصدر نفسه ٢ : ٨٤ .
(٣٣) العقد الفريد ٢ : ٢٥٤ .
(٣٤) المصدر نفسه : ٢ : ٢٧١ .
(٣٥) المصدر نفسه ٢ : ٢٩٠ .

وقال عمر بن عبد العزيز : من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عملٌ قلّ كلامُه إلا فيما ينفعه(٣٦) .

وفي تاريخ القضاة للكندي أن عياض بن عبيد الله قاضي مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز في مسألة ، فكتب إليه عمر أنه لم يبلغني في هذا شيء ، وقد جعلته لك فاقض فيه برأيك(٣٧) .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض الخوارج : « إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها(٣٨) .

وسأل عمر راكباً من أهل المدينة عن الناس وما وراءه ، فقال : إن شئت جمعت لك خبري ، وإن شئت بعّضته تبعيضاً . فقال عمر : بل اجمعه . فقال : إني تركت أهل المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم منصور ، والغنيّ موفور ، والعائل مجبور ، فسرّ بذلك عمر وقال: والله لئن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس(٣٩) .

وقال عمر ، رحمه الله : إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس(٤٠) .

وقال أيضاً : إني أُعظِم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد(٤١) .

---

(٣٦) المصدر نفسه ٢ : ٢٩٣ .
(٣٧) المصدر نفسه ٢ : ٩٨ .
(٣٨) المصدر نفسه ٣ ١٢١ .
(٣٩) تاريخ القضاة للكندي ٣٤٤ وفجر الإسلام ٢٣٦ .
(٤٠) فجر الإسلام ٢٦٣ .
(٤١) ابن عبد الحكم ١٣٥ .

وله أيضاً : إذا قدرتَ على دواءٍ تشفي به صاحبك دون الكيّ ، فلا تكوينّه أبداً(٤٢) .

وارتعد عمر حين قال رجل لرجل في حضرته : تحت إبطك ، فقال عمر : وما على أحدكم أن يتكلّم بأجمل ما يقدر عليه ! قالوا : وما ذاك ؟ قال : لو قال تحت يدك كان أجمل(٤٣) !

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز : قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة ، فقال عمر : وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد كفيت المسئلة ، وأجزلت في العطية(٤٤) .

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً ينادي : يا أبا العُمرين ، فقال: لو كان عاقلاً لكفاه أحدهما(٤٥) .

ودخل حميد يوماً على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حميد . قال : حميد الذي . . .؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما شربت مُسكراً منذ عشرين سنة ، فصدّقه بعض جلسائه ، فقال له : إنما داعبناك(٤٦) .

دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو ينام نومة الضحى فقال : يا أبت ، أتنام وأصحاب الحوائج واقفون ببابك ؟ قال : يا بنيّ ، إن نفسي مطيتي ، فإن أنضيتها قطعتها ، ومن قطع المطيّ لم يبلغ الغاية(٤٧) !

وقال عمر : الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان ضرُّه

---

(٤٢) البيان والتبيين ٣ : ٨٤ .

(٤٣) ابن عبد الحكم ٥٢ .

(٤٤) ابن الجوزي ٦٢ .

(٤٥) الخليفة الزاهد ١٨٩ .

(٤٦) العقد الفريد ٧ : ٩٤ .

(٤٧) المصدر نفسه ٧ : ١٤٤ .

فاجتنبه ، وأمرٌ أُشكل أمرُه عليك فرُدَّه إلى الله[٤٨] .

(٤٨) المصدر نفسه ٨ : ٥٩ .



الفصل الثالث عشر
عمر والعلوم

* تعلّموا العلم ، فإنه زين للغني وعون للفقير .

* إن استطعت فكن عالماً ، فإن لم تستطع فكن متعلّماً ، فإن لم تستطع فأحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم .

* إنما يُراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشدّ من الجهل ، ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت .

* أني اخترتك لتأديب ولدي ، فحذّثهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، واترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلّل الضحك فإن كثرته تميت القلب .



لقد حثّ الإسلام على طلب العلم والمعرفة ، ودعا الناس إلى التفكير المنطقي والتأمل العقلي ، فحرّك العقول ، وفتح الأذهان ، وأعلى من قدر العلماء وأثنى عليهم في محكم كتابه العزيز ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[2] .

وكذلك قارنت الأحاديث النبوية بين العلم والعبادة ففضّلته عليها ، كما جعلت مداد العلم يوازي دم الشهادة .

ومن هذه الأحاديث التي تحثّ على طلب العلم : العلم زينة أمام الأصدقاء وسلاح أمام الأعداء . ترفرف ملائكة الله بأجنحتها فوق طالب العلم . أول ما خلق الله العقل ، ولم يخلق أفضل منه .

وقد اقتبس الخلفاء والصحابة من نور هذه الآيات وسحر تلك الأحاديث ما جعلهم يحاربون الكثير من الخرافات والأوهام التي كانت شائعة في عصرهم .

وكان الحسن والحسين قد رأيا أن طالب الحاجة إليهما لا يستحق إلا بقدر

(١) سورة العنكبوت ـ الآية ٤٣ .
(٢) سورة المجادلة ـ الآية ١١ .

علمه ؛ فمن كان عالماً كل العلم أخذ كل حاجته ، ومن كان عالماً نصف العلم أو ثلثه أُو ربعه أخذ بقدر ما يعلم[٣] .

وأما عمر بن عبد العزيز فقد أجرى على المعلمين الأرزاق والأجور ، وأغدق على عماله وقضاته ومعلميه حين ضيّق على نفسه وولده ، وكان يقول : تعلّموا العلم فإنه زين للغنيّ وعون للفقير ، لا أقول إنه يطلب به ولكنه يدعو إلى القناعة . ولم يرَ أحداً في غنى عن العلم فكان يقول : إن استطعت فكن عالماً ، فإن لم تستطع فكن متعلّماً ، فإن لم تستطع فأحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم[٤] .

وكان عمر قد تلقى علومه الأولى على يد صالح بن كيسان ، وكان أبوه عبد العزيز قد بعثه إلى المدينة للتأدب بها ، وكتب إلى ابن كيسان يتعهدّه ، فأبطأ عمر يوماً عن الصلاة ، فقال صالح : ما حبسك ؟ فقال : كانت مرجلتي تصلح شعري ، فكتب إلى أبيه بذلك ، فأرسل أبوه رسولاً ، فلم يزل حتى حلق شعره[٥] .

لم تترك هذه الحادثة أثراً في نفس عمر ، فانكبّ الفتى على حفظ القرآن ، وعلى دراسة الحديث ، حتى إذا تمّ له الحفظ راح يحدّث عن بعض الصحابة وأعلام التابعين ويروي عنهم .

فقد حدّث عن عبد الله بن جعفر وعن أنس وعن أبي بكر بن عبد الرحمن ، وعبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[٦] .

---

(٣) الخليفة الزاهد ص١٦٩ ، ١٧٠ .
(٤) ابن عبد الحكم ص١٣٧ و١٧٩ .
(٥) فجر الإسلام ص١٧٣ والكامل في التاريخ ٥ : ٦٢ .
(٦) ابن الجوزي ص٨ .

وروى عمر الحديث عن خاله عبد الله بن عمر وعن عبد العزيز أبيه وعن عمر بن أبي سلمة والسائب ويوسف بن عبد الله بن سلام وعبادة بن الصامت وتميم الدّاريّ والمغيرة بن شعبة . وروى عن عائشة وأم هانيء وخولة بنت الحكم ، ثم روى عن سعيد بن المسيب وعبد الله بن ابراهيم بن قارظ وعروة ابن الزبير وعامر بن سعد بن أبي وقاص وأبي بردة ، وعن عراك بن مالك والزهريّ ومحمد بن كعب وممطور الحبشيّ وأبي حازم ، وعن خلق غير هؤلاء كثير(٧) .

أسند عمر الحديث ورواه عن جماعة من الصحابة وجماعة من التابعين ، ثم لم يلبث أن اشتغل عن الرواية فقلّ حديثه ، ولكنه كان قد بلغ مبلغاً كبيراً من العلم بالسنن ، وصار ثبتاً حجّةً حافظاً ، بالغاً مرتبة الاجتهاد(٨) ، فأقبل عليه كثير من الفقهاء يأخذون عنه(٩) ، وعاد إليه بعض الذين أخذ عنهم يأخذون منه ، حتى إذا ذهب إلى الشام بعدُ جعل الفقهاء من أهلها وأهل الحجاز يستفتونه فيفتيهم(١٠) ، بل كان كل من ظنّه محتاجاً إلى العلم فامتحنه رآه مستغنياً ، حتى قال مجاهد : أتينا عمر نعلّمه ، فلم نبرح حتى تعلّمنا منه(١١) .

وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر تلامذة .

وكان عمر يقول : كنت أصحب من الناس سراتهم ، وأطلب من العلم شريفه ، فلما صار لي أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفساف العلم ، فتعلموا من العلم جيده ورديئه وسفسافه(١٢) .

---

(٧) ابن الجوزي ص١٢ وصفة الصفوة ٢ : ٧١ وتاريخ الخلفاء ٢٢٩ .
(٨) تذكرة الحفاظ ١ : ١١٢ .
(٩) حياة الحيوان ١ : ٦٨.
(١٠) ابن الجوزي ص٢٨ .
(١١) الكامل في التاريخ ٥ : ٦٢ .
(١٢) الخليفة الزاهد ص٢١٣ .

واهتم عمر بنشر العلم ، فكتب إلى أهله أن ينشروه في مساجدهم وحلقاتهم ، وخطب مرة فقال : أيها الناس ، إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشدّ من الجهل ، ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت[١٣] .

وفي الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) أو سنته فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أهل الآفاق : انظروا إلى حديث رسول الله (ص) فاجمعوه[١٤] .

وكان يزيد بن أبي حبيب ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر ، رجلان من الموالي ورجل من العرب . فأما العربي فجعفر بن ربيعة ، وأما الموليان فيزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر ، فكان العرب أنكروا ذلك ، فقال عمر : ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون[١٥] .

وحُكي أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن غيلان وفلاناً نطقا في القدر فأرسل إليهما وقال : ما الأمر الذي تنطقان به ؟ فقالا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال : وما قال الله ؟ قالا : قال : **﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾**[١٦] ثم قال : **﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾**[١٧] ، ثم سكتا ؛ فقال عمر : اقرآ ، فقرآ حتى بلغا **﴿ إن هذه تذكرة**

---

(١٣) ابن الجوزي ٩ و٩٣ و٢٠٧ ، و٢٣٩ .
(١٤) فجر الإسلام ٢٢١ والخليفة الزاهد ص٢١٢ .
(١٥) فجر الإسلام ١٩١ وخطط المقريزي ٢ : ٣٣٣ .
(١٦) سورة الإنسان ـ الآية١ .
(١٧) سورة الإنسان ـ الآية٣ .

فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله . . . ﴾ إلى آخر السورة[١٨] ؛ قال عمر : كيف تريان ؟ تأخذان الفروع وتدعان الأصول ! قال ابن مهاجر : ثم بلغ عمر أنهما أسرفا فأرسل إليهما وهو مغضب . فقام عمر وكنت خلفه قائماً حتى دخلا عليه وأنا مستقبلهما ، فقال لهما : ألم يكن في سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود ألا يسجد ؟ قال : فأومأتُ إليهما برأسي أن قولا نعم وإلا فهو الذبح ، فقالا : نعم ، فقال : أولم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحوّاء عن الشجرة أن يأكلا منها فألهمهما أن يأكلا منها ؟ فأومأت إليهما برأسي ، فقالا : نعم ، فأمر بإخراجهما ، وأمر بالكتاب إلى سائر العمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا عن الكلام . فلم يلبثا إلا يسيراً حتى مرض عمر ومات ولم يُفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل[١٩] .

وحدث نعيم بن حماد قال : بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه :

من ملك الأملاك الذي هو ابنُ ألف ملك ، والذي تحته ابنةُ ألف ملك ، والذي في مربطه ألف فيل ، والذي له نهران يُنبتان العود والألُوَّة والجوز والكافور ، والذي يوجد ريحه على مسيرة اثنى عشر ميلاً ، إلى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً .

أما بعد ، فإني قد بعثت إليك بهدية[٢٠] ، وما هي بهدية ولكنها تحفة ؛ قد أحببت أن تبعث إليّ رجلاً يعلّمني ويفهّمني الإسلام . والسلام[٢١] .

وكان عمر بن عبد العزيز أشدّ الناس على ولده في اللحن ، وربّما أدّب

---

(١٨) سورة الإنسان ـ الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .
(١٩) فجر الإسلام ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .
(٢٠) الهدية : الكتاب .
(٢١) العقد الفريد ٢ : ٦٠ .

عليه . وقد كتب إلى مؤدب ولده يقول :

أما بعد فإني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي فصرفتهم إليك عن غيرك من مـوالـيّ وذوي الخـاصـة بي ، فحـدّثهم بـالجفـاء فهـو أمعن لإقـدامهم ، واترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلّل الضحك فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن . فإنه بلغني من الثقات من أهلِ العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشبَ الماءُ . وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته ، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض حافياً فرمى سبعة أرشاق ثم انصرف إلى القائلة .

وكما اهتم عمر بعلوم الدين فقد أبدى اهتماماً كبيراً بعلوم الدنيا ، ولاسيما الـطب لحـاجـة النـاس إليـه ، فهـو أول من حـارب فقـر النـاس وجهلهم وأمراضهم[٢٢] .

وفي عصره ظهر كثير من أطباء النصارى في بلاط الخلفاء ، ومنهم : عبد الملك بن أبجر الكناني وكان طبيباً عالماً ماهراً ، وكان في أول أمره مقيماً بالإسكندرية ، وكان يتولى التدريس فيها ، ولما استولى المسلمون على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز ، وكان حينئذٍ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة ، وصحبّه ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر نقل التدريس إلى أنطاكية وحرَّان وتفرق في البلاد ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب[٢٣] .

وقد أمر عمر بإخراج كتاب في الطب ، أخرجه « ماسرجويه » الطبيب

---

(٢٢) تاريخ العرب ٣١٨ وابن الجوزي ص٢٥٧ ، ٢٥٨ .
(٢٣) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ، اوفجر الإسلام ص١٦٣ .

الإسرائيلي وبثّه في أيدي الناس[٢٤] .

وأغدق عمر على عماله وقضاته ومعلميه حين ضيّق على نفسه وولده ، فدخل عليه ابن أبي زكريا فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أريد أن أكلمك بشيء ، قال : قل . قال : قد بلغني أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار ، قال : نعم . قال : ولم ذلك ؟ قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة ! فقال : أنت يا أمير المؤمنين أولى بالمال ؟ فأخرج عمر ذراعه من ثيابه وقال : يا ابن أبي زكريا ، إن هذا قد نبت من مال الفيء ، ولست معيداً إليه منه شيئاً أبداً ![٢٥] .

ولم يكن هذا غاية أجر العامل عنده. بل كان يرتفع عن ذلك كثيراً حتى يبلغ ألف ألف درهم في العام[٢٦] .

وكما عني عمر بتعليم أولاده فاختار لهم المؤدب الصالح ، ورسم له منهاجاً جيداً في الدراسة يجمع بين الدين والدنيا ، ويراوح بين البدن والروح ، كذلك اهتم بشؤون الرعية فاختار لهم المعلم لتمام دينه وعلو نفسه وجودة رأيه .

ولم يفرق عمر بين معلم عربي وآخر أعجمي . وقد صارت في عهده طبقة من هؤلاء كثر عددها وذاع فضلها ، فتركت بصماتها الواضحة في نفوس الرعية توقاً ، وفي قلوبهم شغفاً وحباً .

---

(٢٤) فجر الإسلام ص١٦٣ .
(٢٥) الخليفة الزاهد ص٢١٥ .
(٢٦) ابن الجوزي ص٧٤ و٩٥ و١٠٣ والكامل في اللغة والأدب ١ : ٢٦٨ .





الفصل الرابع عشر

الولد سر أبيه . . .

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز



نشأ عبد الملك منذ صغره قوي الإيمان ، ثابت الجنان ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يثنيه عن عزمه ما يرى ويسمع من المظالم التي لحقت بالرعية على أيدي الأسرة الأموية . فجعل الفتى الزاهد يقتحم على أبيه مجلسه وناديه ومخدع نومه وقيلولته يحثه وينبّهه ألا يؤخر مظلمة مخافة أن يُحَمّ الأجل فتسوء المغبة وتلتهب على جسد أبيه النار .

وما زال الصبي بأبيه يزعه ويدعوه حتى بدا وكأنه هو الذي أدخل أباه في العبادة[1] . وقد شاهد أهل الشام بأعينهم حاليْ عمر قبل الخلافة وبعدها ، فقال بعضهم : كنا نرى أن عمر إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك[2] .

فحين انصرف عمر من دفن سليمان بن عبد الملك تبعه الأمويون ، فلما دخل إلى منزله قال له الحاجب : الأمويون بالباب ، قال : وما يريدون ؟ قال : ما عوّدتهم الخلفاء قبلك . فقال عبد الملك وهو إذ ذاك ابن أربع عشرة سنة : إئذن لي في إبلاغهم عنك . قال : وما تبلغهم ؟ قال : أقول لهم : أبي يقرئكم

(١) ابن الجوزي ص٢٥٨ .

(٢) صفة الصفوة ٧٢ والنجوم الزاهرة ١ : ٢٤٣ .

السلام ويقول لكم ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾[٣] .

ويروى أن عمر حين فرغ من دفن سليمان ذهب يتبوأ مقيلاً ، فأتاه عبد الملك ابنه فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني ، أريد أن أقيل . قال : تقيل ، ولا تردّ المظالم ؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فإذا قِلت قمتُ فرددتُ المظالم . فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش حتى تقوم فتردها ؟ فقال عمر : أي بني ، ادن مني . فدنا منه فالتزمه وقبّل ما بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني[٤] .

ورأى عبد الملك يوماً أباه كالمتردد فقال له : يا أبت ، ما لك لا تُنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالي لو غلت بي وبك القدور في الحق ! فقال له عمر : لا تعجل يا بنيّ ، فإن الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ، ويكون من ذلك فتنة[٥] .

ودخل عبد الملك على أبيه يوماً وكان عنده عمه مسلمة فطلب إلى أبيه أن يخليه به ، فقال له : أسرٌّ دون عمك ؟ قال: نعم ، فقام مسلمة وجلس هو بين يدي أبيه وقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال : رأيتَ بدعة لم تمتها وسنة لم تحيها ؟ فقال عمر : يا بني ، أشيء حملك أم رأي رأيته ؟ قال : لا والله ، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، عرفت أنك مسؤول فما أنت قائل ؟ قال أبوه : يرحمك الله يا بني ويجزيك من ولد خيراً ، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير[٦] .

---

(٣) العقد الفريد ٥ : ١٧٣ .
(٤) الخليفة الزاهد ١٢٠ و١٢١ .
(٥) العقد الفريد ٥ : ١٧٣ وابن الجوزي ٧١ .
(٦) صفة الصفوة ٢ : ٧٢ والخليفة الزاهد ١٢٢ .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز قال لمولاه مزاحم : إن أهلي أقطعوني ما لم يكن إليّ أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه ، وإني قد هممت بردّه على أربابه . قال : فكيف نصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : أكلهم إلى الله . فخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك فقال له : إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا ، وهذا أمر يضرّكم وقد نهيته عنه .

فقال عبد الملك : بئس وزير الخليفة أنت ! ثم قام فدخل على أبيه وقال له : إن مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك ؟ .

قال : إني أريد أن أقوم به العشية .

فقال عبد الملك : عجّله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث .

فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذرّيتي من يعينني على ديني !(٧) .

وقال ميمون بن مهران : بعث إلي عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبي قلابة فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول يومئذٍ قولاً ضعيفاً كرهه عمر ، ونظر إليّ كالمستغيث ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابعث إلى عبد الملك فأحضره فإنه ليس بدون من رأيت . فلما دخل عبد الملك قال له : ما ترى في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلماً وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قال : أرى أن تردّها فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها(٨) .

وقيل : غضب عمر يوماً فاشتدّ غضبه ، فلما سكن قال له ابنه : يا أمير المؤمنين ، في قدر نعمة الله عندك وموضعك الذي وضعك الله به ، وما

(٧) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٣ و٦٤ .
(٨) ابن الجوزي ص١٠٥ .

ولّاك من أمر عباده ، أن يبلغ بك الغضب ما أرى ! قال عمر : كيف قلت ؟ فأعاد عبد الملك كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب أنت يا عبد الملك ؟ قال : ما يغني عني جوفي إن لم أردّ الغضب فيه حتى لا يظهر منه شيء ؟(٩) .

وقال عبد الملك لأبيه عمر : يا أمير المؤمنين ، ما تقول لربّك إذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحيه وباطلاً لم تمته ؟ فقال : يا بني ، إن أباك وأجدادك قد دعُّوا الناس عن الحق فانتهت الأمورُ إليّ وقد أقبل شرّها وأدبر خيرها ، ولكن أليس حسناً وجميلاً ألّا تطلع الشمس عليّ في يوم إلّا أحييت فيه حقاً وأمَتُّ باطلاً حتى يأتيني الموت فأنا على ذلك ؟ .

وقال له أيضاً : يا أمير المؤمنين ، انقد لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور . فقال : يا بني ، إن بادهتُ الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف ، ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف(١٠) .

وقيل : لما نزل الموت بعبد الملك قال له عمر : كيف تجدك يا بني ؟ قال : أجدني في الموت ، فاحتسبني ، فثواب الله خير لك مني ، فقال : يا بني ، والله لئن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك . قال : أما والله لئن يكون ما تحب ، أحب إلي من أن يكون ما أحب(١١) ! .

وقيل : لما فرغ عمر من دفن ولده عبد الملك وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا بني ، فلقد كنت سارّاً مولوداً وبارّاً ناشئاً ، وما أحب أني دعوتك فأجبتني ؛ فرحم الله كل عبد ، من حر أو عبد ، ذكر أو أنثى دعا لك برحمة ! فكان الناس يترحمون على عبد الملك ليدخلوا في دعوة عمر(١٢) .

---

(٩) الخليفة الزاهد ١٢٣ .
(١٠) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ : ٦٥ و٦٦ .
(١١) العقد الفريد ٥ : ١٧٣ والكامل في التاريخ ٥ : ٦٥ .
(١٢) العقد الفريد ٥ : ١٧٣ و١٧٤ .

ودخل الناس يعزون عمر بموت عبد الملك فقال : إن الذي نزل بعبد الملك أمر لم نزل نعرفه ، فلما وقع لم ننكره[١٣] ! .

وقيل لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله : إن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله ، أحسن الله إليه وإليّ فيه ؛ أعاشه ما شاء وقبضه حين شاء ، وكان ـ ما علمت ـ من صالحي شباب أهل بيته قراءةً للقرآن وتحرياً للخير ، وأعوذ بالله أن يكون لي محبة أخالف فيها محبة الله ، فإن ذلك لا يحسن في إحسانه إليّ ، وتتابُع نِعَمه عليّ ، ولأعلمن ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة ؛ قد نهينا أهله الذين هم أحقّ بالبكاء عليه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز يعزيه في ابنه عبد الملك ببيت من الشعر:

وعُوِّضتَ أجراً من فقيدٍ فلم يكن فقيدُك لا يأتي وأجرُك يذهبُ[١٤]

وعزى محمد بن الوليد بن عُتبة عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين أعِدْ لما ترى عدّة تكن لك جُنَّةً من الحزن وسِتراً من النار ! فقال عمر : هل رأيت حزناً يُحتجُّ به ، أو غفلة ينبِّه عليها ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لو أن رجلاً ترك تعزية رجل لعلمه وانتباهه لكُنْتَه ، ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين[١٥] .

---

(١٣) نفس المصدر ٥ : ١٧٤ .
(١٤) نفس المصدر ٣ : ٢٣٣ .
(١٥) العقد الفريد ٣ : ٢٣٢ .



المصادر والمراجع

١ ـ الأعلام : لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٤ .
٢ ـ الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٦ .
٣ ـ الأمالي : لأبي علي القالي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠ .
٤ ـ البخلاء ـ دار المعارف بمصر .
٥ ـ البيان والتبيين : للجاحظ ـ مصر ١٣٦٧ ـ ١٣٦٩هـ .
٦ ـ تاريخ الخلفاء : للسيوطي ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
٧ ـ تاريخ الطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٨ .
٨ ـ تاريخ العرب : لفيليب حتي ـ دار غندور ـ بيروت ١٩٨٠ .
٩ ـ تاريخ القضاة : للكندي .
١٠ ـ تاريخ اليعقوبي ـ النجف ١٣٥٨هـ .
١١ ـ تذكرة الحفاظ : للذهبي ـ حيدر آباد ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤هـ .
١٢ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر : لعبد القادر بدران ـ دمشق ١٣٢٩ ـ ١٣٥١هـ .
١٣ ـ تهذيب التهذيب : لابن حجر العسقلاني ـ حيدر آباد ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧هـ .
١٤ ـ جمهرة أشعار العرب : للقرشي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٦ .
١٥ ـ حلية الأولياء : للأصبهاني ـ مصر ١٣٥١هـ .

١٦ ـ حياة الحيوان الكبرى : للدميري .
١٧ ـ الخراج : لأبي يوسف .
١٨ ـ خزانة الأدب : للبغدادي ـ مصر ١٢٩٩هـ .
١٩ ـ الخطابة ، أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب .
٢٠ ـ خطط المقريزي .
٢١ ـ الخليفة الزاهد : لعبد العزيز سيد الأهل ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٣ .
٢٢ ـ ديوان جرير ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٦ .
٢٣ ـ ديوان الفرزدق ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٧ .
٢٤ ـ ذيل الأمالي : لأبي علي القالي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠ .
٢٥ ـ رغبة الآمال : للمرصفي ـ مصر ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨هـ .
٢٦ ـ زهر الآداب : للحصري ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢ .
٢٧ ـ سمط اللآلي : للبكري .
٢٨ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزي .
٢٩ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن عبد الحكم ـ مصر ١٣٤٦هـ .
٣٠ ـ شذرات الذهب .
٣١ ـ الشعر والشعراء : لابن قتيبة ـ دار صادر ـ بيروت .
٣٢ ـ صفة الصفوة : لأبن الجوزي ـ حيدر أباد ١٣٥٥هـ .
٣٣ ـ العقد الفريد : لابن عبد ربه ـ دار الفكر .
٣٤ ـ العمدة : لابن رشيق ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢ .
٣٥ ـ عيون الأخبار : لابن قتيبة ـ مصر ١٣٤٣ ـ ١٣٤٩هـ .
٣٦ ـ عيون الأنباء : لابن أبي أصيبعة ـ مصر ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠هـ .
٣٧ ـ فجر الإسلام : لأحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٩ .
٣٨ ـ فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبي ـ مصر ١٢٩٩هـ .
٣٩ ـ القرآن الكريم .

٤٠ ـ الكامل في التاريخ : لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٨٢ .

٤١ ـ الكامل في اللغة والأدب : للمبرد ـ مكتبة المعارف ـ بيروت .

٤٢ ـ مجمع الأمثال : للميداني ـ مصر ١٣١٠هـ .

٤٣ ـ المرشد في الدين الإسلامي ـ تأليف جماعة من الأساتذة المصريين .

٤٤ ـ مروج الذهب : للمسعودي ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٤٥ ـ مسالك الأبصار : للعمري ـ مصر ١٣٤٢هـ .

٤٦ ـ معجم الأدباء : لياقوت الحموي ـ .

٤٧ ـ معجم البلدان : لياقوت الحموي ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٨٤ .

٤٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : لمحمد فؤاد عبد الباقي ـ تركيا ١٩٨٤ .

٤٩ ـ النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي ـ دار الكتب المصرية ١٣٤٨ ـ ١٣٧٥هـ .

٥٠ ـ نفح الطيب : للمقريزي مصر ١٣٠٢هـ .

٥١ ـ وفيات الأعيان : لابن خلكان ـ مصر ١٣١٠هـ .



الفهرس



